الإرهابي

المؤلف : محمد جربوعة

Author: Mohamed djarboua

العنوان : الإرهابي – رواية

جميع الحقوق محفوظة © copyright

الطبعة الأولى : ٠٢- ٢٠١٠ م.

First edition : 02-2010

الناشر: منشورات محمد جربوعة

محمد جربوعة

الإرهـــابــي

منشورات محمد جربوعة

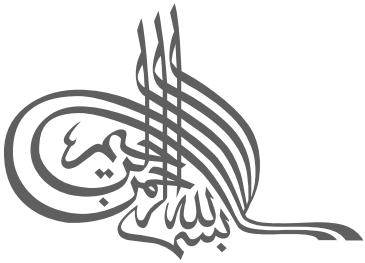
بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

لا تخيفنك هذا الرواية ... فمشكلة أن يخاف المرء من كتاب...
ولا تعلن معاداة المتن بمعاداة عنوانه.. فظلم أن يدفع المتن ثمن عنوان... تخاف أن ترغمك الديباجة على تقمّص شخصية الإرهابي؟ بذلك فقط تفهم كل شيء... وأزعم أنّ رؤساء الدول، وزعماء الأحزاب، ومدراء مراكز الدراسات، وعلماء النفس، وضباط الاستخبارات، و أئمة المساجد، وعلماء الدين، وجنود الاحتلال، ومواطني الدول المستعمِرة والدول المستعمَرة، ومدمني الأنترنت والمخدرات، وعناصر الجماعات المسلحة، وأثرياء العالم، وفقراء الحارات الشعبية، وطلاب الثانويات والجامعات، ومعلّمي المدارس الابتدائية، وسائقي سيارات الأجرة..كلهم..كلهم وغيرهم، معنيون بقراءة هذه الرواية.. نحو إرساء خرائط موضوعية لعالم جديد، يصنع المنطق فيه القوة، وليس العكس.. إذ القوة لا تصنع منطقا..

برزخ

أغمض عينيه وسحب إلى صدره كمّا من الهواء في محاولة لتوسيع الحيّز الذي يضيق حول قلبه...

هكذا يقترب العام الدراسي من نهايته، باتجاه صيف ساخن، مغبرّ، وجاف من كل معاني الخضرة والانتعاش والحبور...

ورغم أنّه من المولعين بالدراسة والجادين في تحصيل العلم، فإنّ مردّ حزنه في تلك الصبيحة الربيعية المشمسة ليس إلى انتهاء سنوات الجامعة.. فقد كان حريّا به اليوم وهو يقترب من التخرّج طبيب أسنان أن يرسم كلّ فراشات الفرح وأن يطيّرها في كل الآفاق الحالمة حوله.. لكن..

لم يعرفه من عرفه من الطلاب والأساتذة إلا شابا مدللا لوالديه الثريين المثقّفين، إذ كان أبوه السيد صالح دبلوماسيا لامعا، ترك السياسة ليتفرّغ لإدارة استثماراته، بينما تنتسب أمه واسمها جمانة إلى عائلة ارستقراطية ، وقد كان جده لأمه

من أعيانا البلد ووجهائه، ولا غرو فهو صاحب مصانع اللبن ومشتقاته، مع ملكية أراض تصل مساحاتها إلى أرقام خيالية.

وفي ما يوجده هذا الثراء والمكانة من الظروف، نشأ عمر، ولم يكن الظن بمن هو مثله ليخطئ صورته..فهو ناعم، رقيق الحاشية ، حييّ مثابر ،همّه استكمال مسيرة والديه في ما سيرثه من المال والمكانة، كونه وأخته مارية الوارثين الوحيدين.

ورغم ما يظلله من أغصان النعمة وأفياء الرفعة، إلا أنّ هذا الطالب الجامعي كان محبوبا بين أصدقائه وزملائه وأساتذته، إذ حباه الله بشخصية شفافة مهذبة آسرة..

صحيح أنّه كان يلبس من اللباس أغلاه ومستورده، ويقتني من السيارات ما يدهش أنظار من هو في سنه، وأنه يعتني بملبسه وعطوره وتلميع جمّته حدّ الانتقاد، لكنه لم يكن ينأى بنفسه عن مجالس زملائه وأبناء حيّه حتى من الفقراء والمعوزين.

ولم يطرأ على حياة عمر ما يعكّر صفوها أو يربك انتظامها أو يصعّد في صدره الأنفاس، غير قدوم هذه الفتاة العراقية التي التحقت بجامعته منذ سنتين...

موصلية جميلة تحمل في أخلاقها عراقة العراق، وفي تدينها

وحشمتها أصالة النخل وطهره.. وفي انكسار لجوئها شموخ آلاف السنوات من التاريخ التليد والحضارة المجيدة...

ليلى.. كان هذا اسمها.. في الثانية والعشرين من عمرها.. منطوية صامتة .. متفوقة في نباهة وحضور بديهة.. وكانوا يسمونها الموصلية.

لأجلها ، كثيرا ما جلس عمر لساعات أمام حاسوبه ، بحثا عن معلومات حول مدينة الموصل وأهلها وتاريخها على الشبكة الدولية...

ولعلّ غوغل كان يدرك ولو قليلا ما الذي يجعل شابا مثل هذا يطيل البحث فيه عن الموصل...

كانت بغداد قد دخلت سنتها السابعة في ظل الاحتلال.. لكنها لم تكن لتنتهي أبدا عن كسر قلوب مسلمين وعرب أحبّوا فيها اختزالها للقصة كلها..قصة التاريخ والجغرافيا والثأر والعداء والخيانة والبطولة ،وحمورابي، وسبي بابل ، وعلي ومعاوية، والروم والفرس، والحضارة والعشيرة، والنفط ودجلة، والكرخ والرصافة..

ولم يكن عمر وهو يتسلل عبر غوغل إلى الموصل المحتلة

يبحث عن طريقة أو شبكة للوصول إلى هناك والانضمام إلى تنظيم القاعدة...لكنه كان فقط يحاول التنفيس عن السر الكبير الذي يحمله بين جوانحه..

هل كان يحبها..هو الذي يلعب مع قلبه لعبة القط والفأر؟

أتراه كان يلبس حالة الشاعر حين قال:

" أتحبها يا قلب دعنا نتفقْ

كن مرة ..

لو مرةً

قلبا صريحاً واعترفْ

فالنار تكشف ما بجوفك يحترقْ

تجتر سرّكَ في سراديبِ التمزّقِ

والتوجع والقلقْ

يكفي ففوق الصخر يظهر ما يحز الحبلُ

والكلمات تشعِل من تلظلظها الورقْ

والشمس تنكر في المساء غروبها

لكنه يأتي ليكشفها الشفقْ

والبدر إذ يسري فمِن أوجاعهِ

مِن نجمةٍ
تبقى ترفرف في الضلوع بجنبه الأيسرَ
كالإزميل في الضلع تدُقْ
فلتعترفْ...
لم يبق سرّ في جيوبكِ
باعك الألم المسهّد والأرقْ" ([1])

هل كان يحبها ؟

لم يكن هذا السؤال هو المشكلة عند عمر، فباستطاعته أن يتدفق كالنهر في الإجابة عنه.. لكن السؤال الذي كثيرا ما سهّده وأرّق جفونه هو: هل تهتمّ هي؟ بل ، هل تدري ولو بخلجات شك أنّ زيتونة قلب الشاب تميل نحوها إذ تهزها رياح العشيّات ..

صحيح أنّ الموصلية كانت حديث الشباب في جلساتهم خُلقا وخَلقا..لكنّ الذي يميّزه عن جميع أولئك أنه لم يكن يذكرها في تلك المجالس ببنت شفة...كان يقلّب قلبه مثل قطعة شواء على جمر يحسّه في الجانب الأيسر من صدره..وفي صمت كان يشرب

[1] - من ديوان " حكايات أنثى" للكاتب.

من كأس التوجّع..

أتراه لفت انتباهها على غرار الكثير من زميلاته اللائي يذبن في نظرة منه أو بسمة ؟

في عامها الأول معهم، وهو العام السابق لعام التخرّج، كان عمر إذ انتصفت السنة الدراسية قد وصل إلى الخطّ الذي يأخذ فيه الناس قراراتهم بشجاعة..حينها كان مملوءً بقناعة أن يصارحها .. وقد شدّ من همّته في ذلك أنه عاشق عذري متطهّر من كل ما يشوب صدق نبضه من نيات السوء ومرامي السيئين.

حينها ، وطوال أيام ، كانت كل مخططاته لاقتحام عالمها وإقحام نفسه في دائرتها الصارمة التي يحيطها الصمت وهالة الهيبة ، قد باءت بالفشل..وأحسّ نفسه جنديا موكلا بمهمة أكبر من قدراته العسكرية.. أو صبيا يُطلب منه رسم لوحة لكوخ أو بيكاسو أو دينيه...

في رأسه المملوء بالهواجس ألف مانع يقنعه بألا يفعل..وماذا لو أنها قابلت محاولته تلك لتجاوز الأسوار العالية التي تحيط بها نفسها بردة فعل صارمة ؟ ماذا لو نهرته أو وبخته أمام زملائه؟كيف سيكون موقفه؟ هل يترك حينها الجامعة التي

يبخّرها ضرس بخور لسرعة انتشار الأخبار والإشاعات فيها؟ أم يترك المدينة برمتها؟

طوال شهر كامل لم يكن ليستريح من تلك المهمة الثقيلة التي كان يجدد عزمه على إنجازها كل ليلة، ولتخونه شجاعته في الصباح التالي..

شهر كامل وهو يعبّئ فمه كل ليلة بالكلمات التي سيقولها في الغد، وباحتمالات ردها وما يجب عليه أن يقوله ردا على ردها.. ووجد نفسه مثل لاعب الشطرنج يفكر لنفسه ولمنافسه...وقد أثّر ذلك عليه فتراجع اهتمامه بدراسته واحتوشته أذرع الوحدة والانزواء وتعرّض لسؤال والديه وأصدقائه عن سرّ تغيّره المفاجئ.. وهمست بثينة زميلته التي كثيرا ما طاردته بأحلامها ونظراتها لبعض صويحباتها أنّه لم يعد هو وأن ذلك يخيفها، فلعل مدلّية غيرها قد دلته في جب الحب..

بعد شهر شعر عمر أنّ من الواجب إلقاء هذا الحمل إلى الأرض إذ لم يعد بمقدوره الاستمرار في معارك تستنزف قواه في أوهامها، إذ يبيت الليل يحشو مخازن البواريد بالطلقات دون أن يطلق منها على ميدان الواقع كلمة...ولعل ذلك ما حدا به لأن

يقول بينه وبين نفسه : " أرهقني هذا الشعور الشبيه بمخلوق هلامي ليلي يولد في الظلام ويتلاشى في ضوء الصباح ".

مضى على ذلك الآن عام ونصف العام، دون أن يتقدّم صاحبنا بنصف خطوة.. ولعله بعد تجربته المريرة تلك لم يفكّر أصلا في أن يخطو، وذلك ما كان يعذّبه..

فأيّ مصير هو مصير هذا الحب الكبير الذي يطويه بين جوانحه سرا كبيرا يأبى الخروج إلى الضوء ؟

وهل ينفض يديه منه هو الذي لا يتصوّر الحياة دون هذه الموصلية الموغلة في الهيبة والصمت؟

لقد أسرته ولم يعد بالإمكان أن يعيش بدونها..وقد كان مكتفيا منها بوجودها قريبة منه، أمّا اليوم فقد بلغه خبر عودتها إلى العراق، فكيف به حين تتلاشى من عالمه ؟أتكون مجرد حلم جميل ؟ نسمة عبرت؟طيفا ضوئيا شفافا لاح واختفى ؟ ومضة انطفأت..؟ نبضة هدأت؟ أنشودة عذبة وصلت ترنيمتها إلى النهاية فتوشحت بالصمت وطارت للأثير البعيد...؟

ماذا يمكن أن يعتبرها وأن يسميها؟

وهل بمثل هذه المرارة سيبدأ حياته؟ ولماذا سيكون عليه أن تخونه

أولى المحطات وأن تكسر قامته أولى العواصف ؟ وأن يرسم في أولى صفحاته حمامة بيضاء بالفحم ؟

وكم تمنى حينها أن يكون طفلا صغيرا ، وأن يكون بمقدوره أن يندس في صدر أمه وأن يبكي كثيرا ويشكو كثيرا وينعم كثيرا بالدفء والأمان والحلول..

لكنه لم يعد طفلا.. وهذه الموصلية التي احتلت ساحات قلبه كما احتل الأمريكيون بلدها، ليست لعبة يمكن لأمه أن تهدّئ روعه بوعد باقتنائها له..لقد أتعسته ، لذلك لم يعد للحب عنده من تفسير سوى أنه التعلق بالشخص الوحيد القادر على أن يجعلك تعيسا..

لعلها المرة الأولى التي يحسّ فيها أنّ المال لا يستطيع شراء كل شيء.. وأنّ أمه حتى لو أنه تداعى إلى حضنها واشتكى وبكى فإنها لا تملك له شيئا..

لقد مضى زمن الطفولة ومقتنياتها وطلباته التي لا تُرد..وهذا زمن آخر يتجاوز حدود التراب إلى الروح ، وحدود القُطر الضيق إلى الوطن الأوسع ، وحدود الجنسية إلى الانتماء الأشمل..إنه زمن موصليّ بامتياز..

أكثر ما كان يدمّر خنادقه وينسف كل مداميكه وتحصيناته ، هو إدراكه ولأوّل مرة، أنّ أجمل ما في الإنسان لا يستخرج بالقوة.. إذ يمكن للسوط أن يرغم الظهر على الانحناء وعلى الإقرار بأنّه هو الله المعبود، لكنّ ما يناله السوط من الظهر لا يتجاوز لين المادة تحت الإكراه، أما القناعات فمعنًى لا يطوّعه إلا المعنى، لذلك قالوا عن الحب أنه كالرمل، إذا أقفلت عليه أصابعك برفق بقي في يدك، لكنك إن ضغطت عليه هرب من بين أصابعك.

ولئن لم تستطع أمريكا بكل حلفائها أن تفرض حُبها على هذه الموصلية ، فكيف له وكيف به هو أن يفرض عليها حبه؟! وحبه مثل حرب العراق، الحب والحرب يجتمعان في كون المرء فيهما إنما يقترفهما عندما يريد، ولكنه لا يهرب منهما إلا عندما يستطيع.. والفرق بين الإرادة والاستطاعة هو ذاته الفرق بين الفاعل والمفعول به.. الحرّ والمملوك.

لكن..لماذا هذا القنوط والغرق في بركة وهمية يصنعها هو من أوهامه؟ فقد يكون له في قلب الفتاة متكأ أو عرش؟ وقد رآها لمرات عديدة تسترق إليه النظر...

ثمّ أنه في عيد الفطر الماضي قد أحضر لها علبة من الحلويات التي يصنعها الناس في بيوتهم في تلك المناسبة، وكان يعلم أنه لن يكون بمقدورها صناعة مثل تلك الأنواع المحلية، فهي ليست من هذه البيئة التي هو منها، وقد انتظرها أمام باب الجامعة في ذلك المساء الذي يسبق العيد بيومين ليسلّمها تلك الهدية التي ترددت كثيرا في أخذها..حينها أحسّها تريد الإمعان في الانتقام من اغترابها الذي حرمها لذة العيد في بلادها ومع أهلها..وفي العيد يستوحش الغرباء أشد وأكثر.

برزخ

طوال عام ونصف العام، كان له في جيوب الأيام ما يتسع ليخبئ فيه إحجامه وتردده، أمّا اليوم وهي على مرمى أشهر من تلاشيها في هذا الوجود ،فإنه لا يجد مناصا من فعل شيء ما، لذلك أحسّ في تلك الساعات أنه يقف في المسافة الضيقة الفاصلة بين أن يحصل عليها وأن تضيع منه.. لذلك لم يستغرب أن ومضت في ذهنه في تلك اللحظات مقولة الأديب الفرنسي بلزاك :" فكّرْ فيما سيكون عليه شعورك في الغد .. فالأمس قد مضى .. واليوم يوشك على الانتهاء."

إنها إشكالية العواطف والزمن..ولئن كان الحب يجعل الزمن يمضي ، فإن الزمن أيضا يجعل الحب يمضي.. لذلك لم يكن مستعدا لأن يعطي فرصة للزمن ليذريه ويذريها ويذري حبه لها في الريح..

لم يكن عليه حينها أن يقرر..بل كان عليه أن يفعل .. وكانت هي جالسة مع إحدى زميلاتها على أحد الكراسي الخشبية في

ساحة الجامعة، بينما كان هو يتكئ على الجدار في زاوية خفيّة يصارع أمواجا يذهب به بعضها ويرجع به البعض..وكان يخاف أن يخونه إقدامه نحو البحر مرة أخرى فيغرق في رمل الساحل بترددده..

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي حاول فيها أن يكلّمها..ولا هي المرة الأخيرة التي يختلي بعدها بنفسه محاولا أن يكتب لها اعترافه الخطير..

كان كثيرا ما يجلس إلى مكتبه في غرفة مطفأة الأنوار.. لا غير مصباح المكتب المعقوف عنقا إلى الأسفل ليسلّط بقعة الضوء على أوراق يذوب فوقها قلم شاب محب .. كتب لها كثيرا ، لكنه لم يرسل إليها ما كتب ولو مرة واحدة .. كان يخاف من الندم الذي قد يفاجئه بعد رسالة تصلها منه فعلا.. والرسالة عنده كالطلقة.. فهو يملكها ما دامت في جوف البندقية ، لكنها متى ما خرجت منها لم يعد بيده من أمرها شيء.. وفي الحب كالحرب هناك رصاصات كثيرة يضعها المقاتل في حزام الذخيرة أو في مشط السلاح ، لكن ذلك لا يعني أنه سيطلق كل تلك الرصاصات.. هناك خطابات يبعث به كاتبها وهناك أخرى يحرقها أو يمزقها ، لكن أجمل الخطابات هي تلك

التي لم يكتبها ..تماما كما أن أكثر الرصاصات براءة هي تلك التي لم تلمسها يد مقاتل.. فلا هي قتلت ولا هي نوت القتال ولا هي حدثت نفسها به..

الحب والحرب هما اللعبتان اللتان ومن دون سائر الألعاب تحتكمان إلى قواعد خاصة في الربح والخسارة، ففي كل الألعاب والمنافسات هناك رابح وخاسر، أما في الحب والحرب فالأمر ليس كذلك ..في الحرب لا يوجد رابح، بل يوجد خاسر وخاسر أكثر، أما الحب فهو اللعبة الوحيدة التي يشترك فيها اثنان..يكسبان معا أو يخسران معا .. ولأن الحب هو أجمل سوء تقدير بين اثنين ، فإنّهما لا يضعان في الحسبان سوى احتمال النجاح..

كان مؤمنا أنّ أجمل الكلمات هي التي لم يقلها بعد.. وأنّ الكلمة حين تقال تفقد الكثير من لمعانها وجاذبيتها وإغرائها .. لذلك كان يستلذ مقاومة الجاذبية ، ويدرك حدّ اليقين أنّ أجمل لحظات الفراشة هي تلك التي تقضيها تدور حول فانوس الضوء دون أن تقع فيه .. وقبل تلك اللحظات ليس سوى اللاضوء كما أنه لا شيء بعدها إلا الاحتراق ..

كان يقول في نفسه: هذه امرأة لم ينفتح باب قلبها للحب بعد..

أتراها أجّلت ذلك إلى ما بعد المأساة التي يعيشها بلدها وتعيشها هي؟

لو كانت أحبّت لنسيت الكثير من مواجعها ، لا لأنّ الحب يداوي الجراح.. بل لأنّ الحب هو أكبر الجراح، وبنبضه الطاغي لا يشعر صاحبه بنبض غيره من الجراح والآلام التي تصغر إلى جنبه وتختفي في وجوده..

لكن ، كيف لها أن لا تحب وهي تعيش مثل هذه الغربة والعزلة، وقديما قالوا : الحب يولد في العزلة والكراهية تولد بين الناس..

برزخ

بيت ذو ثلاثة طوابق..يزينه القرميد في طابقه الأعلى وفي بعض جوانبه..ويحصّنه سور عال يحتضن المساحة المحيطة به إحاطة السوار بالمعصم.. ومن خلال البوابة الكبيرة حين تفتح أحيانا لتخرج منها سيارته أو سيارة والده، تظهر الحديقة المتناسقة، والمسبح المتلألئ، ومرافق الراحة والرياضة ...

ولم تكن سيارة الليكسس السوداء التي تطلّ على استحياء في تلك الساعة من خلال البوابة الكبيرة مثل صبية محجوبة عن الأنظار ، قبل أن تندفع خارجة نحو الشارع العام ، سوى إحدى سيارتيْ عمر...

الساعة السابعة صباحا.. وللعصافير في مثل هذه الساعة وفي مثل هذا الصباح الربيعي النديّ ترانيمها العذبة ، وهي تتقافز على أغصان أشجار السرو والزيتون واللوز والبرتقال في حديقة البيت...

كانت آلة تصفية المياه في المسبح تصدر صوتا خفيفا ينضم إلى

تلك السيمفونية الطبيعية..وفي نافذة في الطابق الأول أزيلت الستائر جانبا وأطلّ وجه أمّه يودعه، وفي شفاهها دعوات في مثل بياض الحليب وصفو أشعة القمر..

انطلقت السيارة تعبر الشارع الطويل الذي يقوم على جانبيه صفان من أشجار الجوز العملاقة، والذي يفضي في نهايته من الجهة اليمنى إلى الطريق الموصل إلى الجامعة عبر عدة كيلومترات من الطبيعة الخلابة التي تفتح شهية سالكه للعلم والنشاط.

ولأوّل مرة يحدث ما يشوّش باله ويبعثر الأسئلة في داخله.. فليس من عادتها أن تغيب أو تتأخر..

في المدرج الأزرق رمى بصره إلى ميناء ساعته السويسرية متأففا.. لقد مرّ نصف ساعة، همس له الأمر الواقع بعدها بأن يقطع حبل الانتظار..فلن تأتي..

كان يقلّب الأسئلة على وجوهها في رأسه كما يفعل خبّاز الصاج في بلاد الشام إذ يعبث بقرص العجين يديره في الهواء على وجوهه ببراعة ، قبل أن يضعه على قبة الصفيح الساخن، وكان هو يعلم علم اليقين أنّه غدًا هو الآخر قطعة من التساؤل

تكوّرها ثمّ تدوّرها أصابع الاحتمال قبل أن تنتهي بها إلى النار.. تراها مريضة ؟ وإذن فهي غريبة وحيدة وبحاجة إلى من يكون معها، وفي هذه الحال يكون من الواجب عليه أن يرسل أمه لتؤنسها وتطمئن عليها..وقد يقتضي الأمر نقلها إلى المستشفى..

أيمكن أن تكون قد سافرت فجأة لطارئ ما مفاجئ ؟

أترى..؟

أتـ...

وكمن يكتشف ما فاته من الحلول ، يضرب كفه اليسرى بقبضته اليمنى زامًّا شفتيه وهو يتمتم: كيف غاب عني ذلك؟

نعم.. نعم.. فليس غيرها.. " ميسمون" صديقتها الملازمة لها والقريبة منها دائما.. تلفّت يمنة ويسرة يبحث عنها في مقاعد المدرج التي تناثر فوقها الطلبة ، ولم تكن هي الأخرى هناك، وهو ما قطع عنده الخيط الوحيد الموصل إلى الحقيقة، كما قطع عنده خيط الشك بسيف اليقين أنّ شيئا ما حدث.

كان عليه أن يتّصل بأنس، شقيق ميسون ، الطالب في كلية الآداب..، ذلك يعني أن يجتاز الطريق المزدوج إلى الناحية الأخرى..ولم يكن ذلك بحاجة لأكثر من خمس دقائق يسيرها عبر

النفق ليجتاز الطريق إلى رصيفه المقابل لباب كليته ..

لم يكن لقاء أنس صعبا، لكنّ المشكلة أنه هو الآخر لا يعلم شيئا عن سبب غياب الموصلية.. مدّ يده إلى جيبه ليخرج هاتفه الجوال وليدق رقم أخته...

- السلام عليكم ..أنا أنس ..أخبرني عمر ..

ولعلها استفسرت من أخيها مَن يكون عمر، فأجاب:

- عمر، الطالب معك في كلية طب الأسنان..إنه يسأل عن سبب غياب صديقتك العراقية..هل من خطْب؟ ... لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ وكيف هي معنوياتها؟..اسمعي كوني معها وإذا احتاجت إلى أي شيء فنحن جاهزون..

كان عمر قد تأكّد من خلال هذه الكلمات المقطوعة عن نصفها في الطرف الآخر أنّ أمرا ما قد حدث ..وما إن أكمل أنس المكالمة حتى بادره الواقف على الجمر قبالته بالسؤال:

- ما الأمر؟ حدث مكروه؟
- أخوها قُتل في العراق..

لم يكن عند أنس غير هذه الجملة المقتضبة التي قد تصلح عنوانا لخبر في جريدة أو قناة إخبارية ، لكنها تستدعي ما بعدها

من التفصيل... وللموت في العراق أسئلته الكثيرة التي لا يملك أقرب المقربين من الضحية في كثير من الأحيان الإجابة عنها.. القتلة الكثيرون الذين يوجهون فوهات رشاشاتهم إلى الشعب العراقي يغيّبون بكثرتهم الحقيقة.. ويختصرون كل جريمة تحدث بجملة صغيرة هي.. "مات وكفى".

برزخ

في شقتها الصغيرة القريبة من الحي الجامعي ، والتي كانت تتقاسم غرفها الثلاث مع طالبتين أخريين، إحداهما عراقية والأخرى من فلسطين، جلست الموصلية الحزينة التي حطّم الخبر قواها..كان رأسها مائلا إلى الخلف مستندا إلى الجدار، بحيث صار وجهها إلى السماء.. وجهها شاحب وعيونها ذبلت من فرط البكاء والسهر.. لم تكن وحيدة آنذاك، فقد كانت رفيقتاها في الغرفة معها ، أما رابعة الموجودات فلم تكن سوى صديقتها ميسون التي قرفصت إلى جانبها وقد وضعت ذراعها الأيسر عليها ، بينما كان في يمناها منديل تتعهد به عيون صديقتها المفجوعة...

رنّ جرس البيت فهرعت الفلسطينية سناء إلى الباب تطّلع من خلال عينه الزجاجية .. وتبعتها عائشة العراقية تسألها : من ؟

- امرأة لا أعرفها..
- افتحي ..افتحي..

على الباب انتصبت امرأة محجبة في الخمسين من عمرها.. تبدو

عليها مخايل النعمة..ولم تنتظر حتى تسألها الفتاتان عن نفسها من تكون.

- السلام عليكم.. أنا السيدة جمانة والدة عمر .. من منكما ليلى ؟ الحقيقة أني جئت لزيارتها ، بل لتعزيتها ولم يسبق لي أن التقيتها..

وسّعت الفلسطينية سناء المدخل للضيفة وهي تردد : تفضلي تفضلي.. أهلا وسهلا ..تفضلي..

بينما أسرعت العراقية عائشة إلى ليلى تخبرها :

- إنها أمّ زميلك عمر..

وكانت السيدة جمانة قد وصلت إلى الغرفة حيث تجلس ليلى التي قامت لتحيتها والارتماء على صدرها والإجهاش بالبكاء ، وكأنها تعرفها منذ سنوات..

كانت السيدة جمانة امرأة مثقفة فاضلة ، لذا أدركت لتوها حادي ليلى للارتماء على صدرها.. ولم يكن ذلك غير الغربة التي يزيدها وجع المصيبة شدة ...ولعل ليلى كانت بحاجة في مثل هذه الظروف إلى أمّها ..ولعل العالم الجديد الذي دخلته منذ عامين ، وهو عالم زميلات الدراسة ورفيقات السكن

اللائي لا توجد بينهن أمّ ، قد انفتح لأوّل مرة لتدخل إليه امرأة تكسر روتين الزمالة بدفء الأمومة.. لذلك وجدت ليلى نفسها مندفعة إلى حنان أمومة قريب موجود، تستشعر به بعض حنان الأمومة البعيد المفقود..

كان الوقت عصرا، وللأصائل في هذا الشهر الأخير من الربيع أنفاسها المعطّرة بالنسائم القادمة من المراعي البعيدة والمروج المترامية على أطراف المدينة.. لكنّ نسائم هبّت مع الذكرى من أرض الموصل البعيدة ، جعلت المساء موصليا بنكهة الموت والاغتراب والتشتت..

كانت الكلمات الحزينة تنبت في شفاه ليلى وأسماع النسوة الثلاث مضمخة بالدمع..

هي قصة أخرى من قصص الوجع العراقي :

- إنه أوسط إخوتي.. لي شقيقتان وثلاثة أشقاء ذكور..هو أوسط الجميع .. طالب ثانوي.. اسمه عثمان..وللأسماء في عراق اليوم تبعاتها..ومنذ سنوات وهو يتعرّض للأذى بسبب اسمه.. حتى نصحه أحد أخوالي بتغييره.. مشكلة أن يدفع كتاب ثمنا بسبب عنوانه..أو يتعدى الأذى ذلك

الكتاب لتحرق مكتبة بأكملها بسبب عنوان على غلاف أحد كتبها..

لقد كان طيلة هذه السنوات يدفع ضريبة التاريخ العربي والإسلامي بكل ما فيه من الصراع ..ضريبة الجغرافيا في بلد تناوشته الأطماع، فلم يعد أحد يفهم أين تبدأ حدوده وأين تنتهي..

خرج إلى السوق لإحضار بعض ما طلبت والدتي..ولعلّ أحد الباعة من الشباب أراد أن يتسلى باستفزازه ...

سحبت إليها تنهيدة أسى لتضيف وهي تجهش بالبكاء:

- أصمّ وأبكم.. لذلك كثيرا ما يتعرّض للأذى من بعض الصبية أو الشباب..

ولعله استنكر على ذلك العابث المستفز ، فما كان منه إلا أن طرحه أرضا وانهال عليه ركلا..

أخي رحمه الله بسيط وساذج ، ولو يكن وضُعُ هذه الإعاقة يسمح له بأن يفهم أنّ الواجب عليه أن لا يردّ على ذلك الشخص استفزازه..

سحبت السيدة جمانة أمّ عمر بأنفها شهقة هواء يتخللها الدمع الذي انساب على وجهها، وقالت:

- ولماذا يكون عليه أن يقبل الإساءة دون أن يرد؟..أو أن يرد فقط لأنه ساذج ؟ أي شخص مثله يتعرض لما تعرض له هو يدفع عن نفسه الأذى.. ذاك حقه الطبيعي..

قالت ليلى :

- عائلة ذلك الشاب معروفة بنفوذها، هم أقرباء أحد كبار المسؤولين في الدولة، وأغلبهم عناصر في فيلق بدر ، لذلك يهابهم جميع أهل الحي.. بل وجميع أهل الموصل من المغلوبين على أمرهم..

ولم يكتف ذلك الشخص بما فعل، بل لجأ أيضا إلى تهديد أخي..يقال أنه قال له : لقد وقّعْتَ شهادة وفاتك بيدك.. هذا ما رواه بعض أبناء جيراننا حسبما ذكرت لي أمي..

ولأن أخي أصمّ فإنه لم يسمع ما هدده به..

رجع إلى البيت فعالج جراحه ،ثم كعادته أخذ زاوية ،واستوعبه عالمه الصامت..

في العاشرة ليلا داهم ملثمون بيتنا..من خلال قناع أحدهم عرفه أخي الأكبر حاتم.. كان عنصرا في فيلق بدر ،وهو الأخ الأكبر للشاب الذي حدثت معه مناوشة النهار..استعطفه حاتم..وضج

البيت بالذعر والاسترحام..بينما كان عثمان يهمهم بصوته الشاكي وهو يحاول أن يقي وجهه وجسمه من الضربات التي انهالت عليه من كل حدب وصوب.. لكنّ ليل العراق بلا قلب يلين.. ساقوه مثل عصفور ،حافي القدمين..وحين قالت لهم أمّي: دعوه فقط يلبس حذاءه، قال أحدهم ساخرا: لن يحتاج إليه فهو لن يمشي بعد اليوم..

مذهولة مما سمعت قالت السيدة جمانة وهي تقلب يديها وتحرك رأسها يمينا وشمالا في استغراب:

- لا حول ولا قوة إلا بالله ..كل هذا يحدث في العراق؟ وبكل هذا الحقد ؟

واصلت ليلى سردها:

- طارت أسراب طيور النوم عن عيون والديّ وإخوتي..وهوت عليهم الصاعقة الطامة فأخرست ألسنتهم.. و...في الواحدة بعد منتصف الليل..رنّ الهاتف... كانوا فيما يبدو قد نقلوا أخي إلى أحد الأقبية السرية التي يتحدث الناس عنها بهمس ورعب..وحين رفع والدي السماعة ليرد، انهال عليه المتكلم بسيل من السباب والشتائم التي جاءت

مختلطة بهمهمات أخي وهو يتعرّض للتعذيب ..

قال المتكلم لوالدي :

- أنت فلان صحيح ؟.. ابنك معنا هنا في الحفظ والستر تحت العصا..

وقهقه المتحدث عاليا ليضيف :

- ..ولأنّ دمه يجري بغزارة، فلعله أراد أن يقول لكم كلمة أخيرة.. نحن دولة القانون ونحترم حقّ أي معتقل أو سجين في الاتصال بأهله أو إيصال وصيته إليهم قبل إعدامه.. لا شك أنه يريد أن يتحدث مع أمه ..أعطني أمه ..أين هي؟ هيا أين أمه؟

كانت والدتي تحمل السماعة تستمع إلى همهماته على الخط.. لم يقل لها كلمة رغم كل الشهقات والهمهمات التي كانت تصدر عنه.. لم يقل كلمة ..كانت والدتي مثل دجاجة ذبيحة يقطر قلب الأمّ في صدرها دما ويتفتت كبدها حسرة مرّة.. فوق الاحتمال..وتحلّق إخوتي بوالدتي ..طوقوها يسندونها..وانقطع الخط..انتهت المكالمة الصامتة .. لم يقل كلمة..لم تقل كلمة..لكنها فهمت منه كل شيء ..وكان هو على يقين أنها ستفهم منه كل ما أراد أن يقوله ولم يقله..

كانت تلك الليلة بالنسبة لعمر إحدى الليالي القليلة التي ستبقى مستعصية على ممحاة السنوات ..كان رأسه يمور بأسئلة تبحث عن إجابة لا بد منها، فليس سهلا أن يعيش المرء وقد اضطربت عنده كل المفاهيم وتداخلت الاتجاهات .. فهل يعقل أن يكون في العراق أناس بمثل هذه البشاعة؟

وإذن فإنّ ما كان يفعله الرئيس العراقي صدام حسين مع أمثال هؤلاء لم يكن جرائم بقدر ما كان عدالة لا بد منها للحفاظ على العراق وأهله..؟!

كانت سيارة عمر تبتلع الطريق الممتد أمامها ابتلاعا، ولم يكن يلوي على شيء إلا على الوصول إلى الدكتور علي أستاذ الفلسفة في الجامعة، وهو صديق حميم لوالده..وحين قلّب عمر في تفكيره وجوه الذين يمكن أن يجيبوه عن أسئلته ، لم يجد مثل الدكتور علي فهما ووعيا وإلماما وقوة منطق..لذلك هرع إليه منذ الصباح ،بعد ليلة قضاها بين أمواج المد والجزر ،بين هدم وبناء، بعد الذي سمعه من والدته بعد عودتها من زيارة ليلى..

وحينما كلّم عمر الدكتور ليأخذ منه موعدا ، ظنّ هذا الأخير

أن الشاب سيوسّطه لأمر يريد إيصاله إلى والده، وغلب على ظنه أن يكون ذلك الأمر هو الزواج.. وهو يعرف عمر جيدا منذ ولادته، ويدرك أنه ليس له من اهتمامات الفلسفة والسياسة والفكر ما يمكن أن يلتقيه لأجله..

في شقته المتواضعة التي كانت دليلا عند منتقدي الأوضاع السياسية في البلد، على أنّ تاجر المخدرات أكثر حظوة وحظا من أستاذ الجامعة، جلس الرجلان..

لم يكن عمر يعرف من أين يبدأ الكلام ،ولا كيف سيصوغ أسئلته..لذلك رأى أن يختصر ذلك بسرده لقصة شقيق ليلى على الدكتور..وفَعَل..

وهو يرتشف كوب الشاي متعللا رشفة رشفة، أصغى الرجل الستيني إلى الشاب الغض .. ولم يبدُ عليه التأثر بحجم ما توقّع عمر، ربما لأن تجربته في الحياة استطاعت أن تعطيه مقدرة على امتصاص الفظاعة مهما كان حجمها..وربما لأنّه تعلّم أن لا يقف عند ظواهر القصص بل يتجاوزها لسبر أغوارها وتحليل أسبابها وتفكيك دوافعها..

كان الشاب في حقيقة الأمر يبحث عن تفسير منطقي يحفظ له

توازنه العقلي، إذ كثيرا ما تقلب الأحداث الصادمة منطق الذين لا يستطيعون تحمّلها، وقد أدرك الدكتور عليّ أنّ عمر لم يكن يبحث عمن يجيبه، لكنه كان يبحث عمن يساعده ليجيب هو نفسه عن تلك الأسئلة التي نبتت حول صورة فظيعة قلبت كيانه بغرابتها، وصدمت في نفسه صورة العراق كما أحبه، وكما يحبه أن يكون ليحبه.

قال الدكتور عليّ وقد أدرك أنه لن يحتاج إلى كثير عناء لإيصال الفكرة إلى شاب عرف عنه ذكاءه وقوة استيعابه:

- هناك فيلسوف يسمى ذيوجانس ، طلب أن يُدفن على رأسه إيمانا منه بأن العالم ينقلب في الآخرة، فإذا انقلب العالم صار هو واقفا على رجليه...لو أنك تأملت طريقة سقوط العراق لوجدت الإجابة عن كل ما تستغربه في لامنطق الصورة..القاعدة العامة التي تحكم العراق اليوم هي الصورة المقلوبة..ولكي تفهم فالأمر بسيط ..فقط اقلب الصورة..

- لكن الجاني لا يعترف اليوم بأنه مجرم..ويصر على أنه حامي القانون.

- تماما كما أن الضحية لا يعترف بأنه مدان.. وفي الأخير لا بد لأحدهما أن يكون مجرما..وكلاهما قد يكون مجرما حسب وضعية الصورة..
- والحقيقة مع من؟
- الحقيقة موجودة خارج البشر..أما داخلهم فأهواؤهم ..وكل شخص يقول أنه على حق..ولا يمكن أن يكون الجاني والضحية على حق في وقت واحد.. المقاتلون في كل الخنادق يقولون أن الله في خندقهم..الأمريكيون يقولون أن الله أرسلهم لإخراج الشعب العراقي من الظلمات إلى النور..وهم يقتلون باسم الله..ووكلاء الاحتلال من أحزاب وجماعات عراقية يقولون أن الله معهم وأنهم الممثلون الحقيقيون للدين، وهم لذلك يقتلون ويسلبون وينتهكون باسم الله وتحت رايته..والذين يقاتلون هؤلاء وأولئك يقولون أن الله معهم لأنهم ضد الاحتلال وأعوانه..لكنّ الله يكون فقط مع الذي يمتلك الحقيقة ..أي مع الحق.. فهل يمكن لهؤلاء أن يكونوا فعلا على حق كما يعتقدون داخلهم..الحقيقة ليست داخلهم أبدا.. إنها موجودة في

السماء وعند الذي هو مرتبط بالسماء منهم، مهما قيل عنه في الأرض.

- لكن صورة الحقيقة تكون حسب الزاوية التي ينظر منها المرء، وآنذاك قد يكون للحقيقة صور عدة متباينة بتعدد المختلفين حول الحقيقة..
- ما تقوله صحيح.. لكن شخصا واحدا هو الذي يرى الصورة الحقيقية للحقيقة، وهو ذاك الذي يراها حسب ما هي ومن جميع جوانبها بما في ذلك جانب أعدائه..
- تعني أن المرء قد يظن حقيقةً ما ليس بحقيقة؟
- المسيحيون القائلون بالصلب وجدوا أنفسهم متورّطين قرونا في الدفاع عن آلة الجريمة وتقديسها.. نحن لا نعتقد أن الصلب قد وقع لعيسى عليه السلام، لكن مع الافتراض والتسليم جدلا بأنه وقع، فالواجب على أنصار عيسى آنذاك أن يكونوا مع الجرح لا مع الرصاصة..مع عيسى الضحية لا مع آلة الجريمة اليهودية.. الأمر سيّان اليوم، فهناك أناس يقفون ضد العراق باسم العراق.. ونيرون أحرق روما لأنه يحبها ..

- لكن الذي يملك القوة والنفوذ يمكن أن يملك كل شيء.. حتى الحقيقة.
- يملك ما هو داخله..أي ادعاء الحقيقة..لكنه لا يملك ما هو خارجه .. لا يملك ما في السماء..أخبرتك أن الحقيقة في السماء..
- لكنه يمكن أن يجرّم غيره إن كان أقوى منه..صحيح..يجرّمه بما هو داخله لا بالحقيقة التي في السماء.. يا بني، هل يمكن أن لا يُمسّ أو يُطعن الشرف العسكري لضابط سام مهما كانت خياناته وتراجعاته؟ وهل يمكن لعلوّ الرتبة أن يجعلها فوق التهمة مهما تردى حاملها على منكبيه؟
- طبعا لا يا دكتور ، فالخيانة خيانة سواء صدرت من جندي بسيط أو من لواء ركن..
- تعتقد أنّ هذا ينطبق على رجال الدين ورتبهم؟
- لا أفهم..؟
- بمعنى أنّ رجل الدين الكبير يخضع في أحكام الشرع ومعايير الأخلاق لما يخضع له أي شخص بسيط ؟
- المفترض أن يكون ذلك كذلك..

- وإذا لم يكن الأمر كذلك؟
- يعني أن أحد الأمرين سيسقط من مصطلح "رجل الدين" ، فإما أن يسقط الرجل أو الدين..
- هل يمكن للرجل أن لا يسقط لأنه مضاف إلى كلمة الدين؟
- طبعا لا.. إلا في حالة واحدة وهي أن يكون الرجل أكبر قيمة من الدين ...
- وسقوط رجل الدين يعني سقوط دين الرجل؟
- ليس بالضرورة، فقد يتراجع أصحاب دين ما أو يرتدون لكن ذلك لا يعني أن دينهم باطل..
- في كل الحالات؟
- لا ، أبدا..فأحيانا يسقط رجل الدين ليكشف زيف دين الرجل..
- إذن نحن متفقون أنّ العسكري مهما كانت رتبته يمكن أن يوصف بالخيانة إذا خان..؟
- متفقون..

- ومتفقون أنّ رجل الدين عالي المقام يحتكم إلى المعايير ذاتها التي يتعرض لها الشخص البسيط..لذلك فهو ليس فوق الخطإ ولا الخطيئة؟
- هذا صحيح..

قال الدكتور:

- في العراق اليوم لا مكان لمثل هذا المنطق.. فالعسكري الذي يقاوم الاحتلال وهو الواجب المفترض لكل عسكري شريف ، مُدان ومطلوب..ومتهم بالخيانة..بينما العسكري المتعاون مع الاحتلال أو المؤتمِر بأمر الغزاة ، شريف وصالح ومساهم في الاستقرار.

الأمر ذاته في عالم المرجعية الدينية ، فكبار رجال الدين لا يفقدون عصمتهم ولا قداستهم، ويبقى انتقادهم من الطابوهات والخطوط الحمراء.. آية الله هو آية الله حتى لو عاش التناقض المفضوح في تركيب هذا اللقب فأصبحت الآية تحارب الله.. وحجة الإسلام هو حجة الإسلام حتى لو كانت الحجة ضد الإسلام..

من المفترض أن يفقد "السيد" لقبه إن هو تحوّل إلى عبد لسيّد

آخر..ولا يهم آنذاك أصله وفصله ..حتى لو كان ابن النبي صلى الله عليه وسلم.. فأبناء الأنبياء يحتكمون من الشريعة إلى ما يحتكم إليه غيرهم من عامة الناس.. نوح كان له ولد من نسله ، لكن الله تعالى قال له : "إنه ليس من أهلك" ..فلا يمكن أن تكون لك كرامة دينية بمجرد نسبك.. كما لا يمكن للعبد أن يكون سيّدا..

هناك في العراق اليوم من لا يتحرك ولا يسكن إلا بأمر أو إذن من الاحتلال .. وبذلك فالسيّد هو الاحتلال الآمر لا العبد المأمور.. لكن مشكلة هؤلاء أنهم مثل رجال الكنيسة يحرّفون الكلم عن مواضعه ويبيعون الوهم وصكوك الغفران للناس ليأكلوا أموالهم بالباطل..

إنّ الله تعالى قال :" وما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول....".

الخمس للرسول أو آل البيت من الغنيمة في الحرب .. وليس لأجل بيع الحرب للعدو، كما تباع مباريات كرة القدم..

- تقصد أن الذين يأخذون الخمس اليوم ليس من حقهم ذلك رغم نسبتهم إلى آل البيت؟

- الخمس حسب القرآن يأخذه آل البيت من أموال الكفار المغنومة..وليس من أموال الأتباع..إلا إذا كان هؤلاء يعتبرون تلك الأموال غنيمة من أتباعهم..
- ما تقوله خطير جدا..
- لكنه صحيح..
- إلى ماذا تريد أن توصلني يا دكتور؟
- إلى أنّ الدين الموجود بكثرة في خنادق العراق ليس موجودا بالأصل إلا في جهة واحدة.. وأنّ الذين يؤسسون نفوذهم في ظل الاحتلال في العراق العربي لا يدركون أنّ ذلك هو بالذات ما يقتل صورة الثورة التي يسوّقونها عن أنفسهم خارج العراق، فلا يمكن للمرء أن يكون بطلا في مكان ما رغم خياناته في غير ذلك المكان..تماما كما لا يمكن للمرء أن يكون آية لله في السماء وهو يحارب الله في الأرض..وكما لا يكون للعسكري أن يكون شريفا وهو يبيع المعركة في الميدان... إنه الوهم في صورة مقلوبة ، وسينهار المنطق في العالم في اللحظة التي سيؤمن فيها بأن الصورة غير مقلوبة..

- وماذا كان باستطاعة عثمان أن يفعل ليضمن حياته..؟
- لا يمكن لأحدنا أن يضمن حياته، فقط يمكن له أن يضمن موته.. هم لم يسمحوا بأن يعيش صدام حسين بطلا بعد فجر العيد ذاك..لكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوه من أن يختار موتة البطولة.
- ولماذا يحرمون عثمان من الحياة؟ من أعطاهم الحق في أن يسلبوا شخصا حياته؟
- ليس المجال مجال نقاش حول الحياة..نحن نتحدث عن الموت ..وكان على عثمان أن يختار موتته لكي لا يترك اختيارها في أيدي ميليشيا الليل التي تدمّر في العراق حضارة الحياة وتزرع تقاليد الموت الأسود..؟
- ربما اختار عثمان موتته مثلما اختارها صدام حسين ؟
- الفرق كبير يا بني.. لأنهم أخذوا عثمان من بيته في زمن احتلال.. لذلك قد يكون عثمان اختار موته متصلبا فعلا لحظة قتله، لكن المشكلة هي أن يختار موتته في تلك اللحظة، بينما كان من الواجب عليه أن يختارها قبل ذلك ..قبل أن يأخذوه..من اليوم الأول لاحتلال بلده..ذاك حقه..

تماما كما فعل صدام ..القاتل دخل العراق بسبع سنوات قبل مقتل عثمان ..وكان على عثمان أن يختار موته منذ أن دخل القاتل إلى بلاده.. الأدباء الرومان سنكا و لوكان و بترونوس، مزق كل منهم عروق يديه وانتظر الموت تنفيذاً لأوامر نيرون الذي جلس يتفرج على نهاياتهم مستمتعا...لذلك فقد اختاروا في موتهم ما اختاره لهم نيرون.. ولو أنهم رفضوا ذلك ففعل بهم أشد من ذلك، لكانوا هم الذين اختاروا موتتهم في تلك اللحظة..لكن كان أفضل من ذلك لو أنهم اختاروا موتتهم بإعلان رفضهم للقاتل منذ أن حكم روما..

أغمض عمر عينيه وضغط فكا بفك وهو ينفض رأسه، كأنه يطيح عنه ما لصق به من أسئلة ، أو كأنه يخرج من سرداب مظلم عاش فيه لساعات طويلة..

وأضاف الدكتور عليّ:

- اسمع يا بني..الذين يحاولون اليوم قتل تاريخ العراق لا يختلفون كثيرا عن هولاكو حين غزا العراق وأراد محو ذاكرته فبنى على دجلة جسرا من الكتب ، وحين تحلل حبر تلك الكتب في النهر واحمرّ

دجلة بلون الحبر، ظنّ هولاكو أن العراق انتهى.. اليوم أيضا يحمرّ دجلة بدماء العراقيين ومنهم عثمان وصدام..لكنه لا ينتهي..

يا عمر..كبار السن أمثالي في العالم كله فهموا اللعبة، بعضهم صامت، وبعضهم غير مبال ..لكن الجميع فهم..لقد سقطت أوراق كثيرة .. كل شيء يمكن أن تفهمه انطلاقا من العراق ..كل شيء..الحق والباطل، والشرف والخيانة ،والحرية والعبودية، والأخلاق والهمجية..الجغرافيا ..التاريخ..السياسة..السمسرة.. والذين سقطوا في امتحان العراق لا يمكنهم أن يخدعوا الناس بعد اليوم خارج العراق..فشكرا للعراق الذي علّم البشرية في عالم اليوم كيف تقرأ، وكان قد علّم البشرية في الزمن الغابر كيف تكتب... فمن كان سيصدّق فعلا أنّ بإمكان رعاة البقر ومبيدي الهنود الحمر أن يعلّموا عراق التاريخ والحضارة كيف يكون حرا ،وكيف يقرأ، وكيف يكتب..هل كانوا يظنون أنه من السهل التغلّب على العراق العظيم؟

برزخ

كان الوقت يمرّ سريعا، تتساقط معه أيام فصل الربيع على الطريق المؤدي إلى الصيف.. والصيف لا يعني لعُمر نهاية الدراسة الجامعية فقط، بل يحمل له مع ذلك، نهاية المهلة التي يجب أن يقرر خلالها... لقد أتعبه التردد لكنّ رأي أمه في ليلى حفّز شجاعته وشحذ إقدامه.. كان ذلك بعد يومين من عودتها من زيارة ليلى للتعزية بوفاة شقيقها.. ولعل الأمّ بتجربة السنين ودهاء النساء قد أدركت من تلهف ابنها لسماع أخبار الموصلية بعد العودة من زيارتها أنّ في الأمر ما فيه مما تحيطه أسوار السر، لذلك رأت أن تقتحم عالمه استجلاء لما يخفي..

قالت:

- صحيح أنّ فاجعتها أدمت قلبي، لكنّ جَمالها الفاتن وخُلُقها الرقيق قد ترك في نفسي بصمة.. أظنها مخطوبة..

قالت السيدة جمانة ذلك وراقبت ردة فعل ابنها، الذي تعرف جيدا سطحية معرفته بعالم المرأة ، وقد توقعت لذلك سهولة الإيقاع به..

ولم تكد كلمة "مخطوبة" تصل إلى مسمع الشاب ،حتى احمرّ وجهه وانتفض وقد زوى جبهته وقرَن حاجبيه :

- " نعم؟ مخطوبة؟"..

ولعله أدرك بعد فوات الأوان أنّ ردة فعله قد فضحته ، فأضاف :

- أقصد أن لا أحد من زملائنا في الجامعة يعرف أنها مخطوبة..

- وكيف يمكن لأحد أن يعرف أنها مخطوبة وهو لم يسأل عن ذلك.. لكنني سألتها عن ذلك.. قالت السيدة جمانة ذلك وراقبت وقع الكلمات على ابنها مرة أخرى.

واندفع الشاب للمرة الثانية اندفاعا يفضحه فيه حماسه واهتمامه الشديد ،وهو يسأل أمه خائفا من جوابها، لكن استعجال القدر في مثل هذه المواضع أخف من انتظاره..

- وماذا كان جوابها ؟

- سكتت البنت ولم تجب..تبدو خجولة جدا وذاك ما رغّبني فيها وحبّبها إليّ، فقليلا ما يجد المرء في بنات اليوم من لازال في وجهها حمرة غير حمرة الأصباغ..

ورغم أنّ كلامها لم ينته، فقد سكتت الأمّ فجأة لتفسح لابنها مجالا آخر يكشف فيه أوراقه التي أخفاها عنها ،ولعلها كانت تقول له في نفسها: ستفهم اليوم يا صغيري أنّ الولد مهما كبُر، فإنه يبقى في نظر والديه صبيا.. وكان في نظرها بريئا بسيطا لا يدرك من عوالم النساء شيئا، ورغم أنّ علاماته في مجال دراسته ممتازة، فإنه فلو قُدر له أن يُمتحن في تخصص عوالم المرأة لسقط من أول سنة.. لكن رغم ذلك فقد كانت السيدة جمانة تدرك أنّ أوان انفصال ابنها عن عالم المرأة الأمّ وبداية دخوله عالم المرأة الزوجة قد أزف، وبقدر فرحها كان خوفها من مستقبل يكون واجبا عليها فيه أن تودّعه على عتبة عالمها باتجاه عتبة عالمه الخاص..

بدا الشاب عصفورا في زوابع أثارتها أمه لتدرك من خلالها ما يخفيه تحت ريش جناحه الصغير، وبين إشفاقها عليه من أن تضعه في مثل هذا الامتحان، وبين واجبها في أن تكون معه في أخطر مرحلة ستنبني عليها حياته وحياة أولاده، كان عليها أن تضع يده في

الشوك ليقطف الزهر.. ولم تكن ليلى الموصلية غير زهرة حمراء نبتت في قلبه، وكانت السيدة جمانة خائفة من أن لا يحسن ابنها المحافظة على تلك الزهرة فتذبل ويذبل معها قلب ابنها...

- اسمع يا عمر، يجب أن تدرك أنّ الخبر يبلغ النساء عادة بعشرين سنة قبل أن يبلغ الرجال..

فرك الولد جبينه بيمينه وقد أطرق محمرّا .. لتضيف أمّه:

- حينما ينبت للطائر الصغير جناحه ،تكون أمّه في دوامة بين حنان أن تحتفظ به في العش، وقسوة حنان أن تلقيه من فوق القمة ليتعلّم الطيران.. وأنت ما شاء الله، بلغت مبالغ الرجال ، وقطار العمر الذي تركبه لا يتوقف، وهو يتجه نحو محطة قادمة،ولأنك تتخرج هذه السنة من الجامعة، وعيادتك جاهزة، ولا محطة لقطار العمر بعد كل هذا سوى شريكة العمر.. وسواء كانت هذه المحطة قريبة أم بعيدة، فإنها الآتية..

كان كلام الأمّ قد فتح لابنها نافذة للخيال، فقد قفزت إلى ذهنه في تلك اللحظة صورته وهو يسوق قطارا لا أحد فيه غيره.. يقترب القطار من المحطة التي لا ينتظر فيها غير امرأة

واحدة.. كان الحلم جميلا كمساء ربيعي، لكنّ الشاب كان خائفا أن تفاجئه تلك المحطة بامرأة أخرى غير ليلى، واقفة .. تحمل حقيبة سوداء أمامها بكلتا يديها، وتنظر إلى الأرض مُطرقة..

وكان عمر قد أخذ موافقة أمه من بين طيات مدحها للفتاة وإعجابها بها .. ولعلّ والده هو الآخر قد علم بالأمر، وهو على مثل رأي زوجته.. وإذن فلم يعد أمام عمر إلا أن يستعمل هذا التفويض ..لكن كيف ؟ فأهل الفتاة بعيدون وهو لا يعرف طريقا للوصول إليهم، ثم أنه لا يعرف من البنت عن نفسها وأهلها شيئا...كما لا يعرف إن كانت مخطوبة أم لا..؟

في ذلك المساء.. وحينما أسلم عمر رأسه للوسادة ، لم يكن في الحقيقة قد أسلمه لغير الأفكار، لكنّه كان معبأ بقرار أن يخطو خطوة عملية .. وقد قال لنفسه: لقد كنت طوال أشهر أقرر وأرسم تفاصيل الخطط وطرائق التحرك دون أن أصل إلى شيء... وسأجرب هذه المرة أن أدخل المعركة بلا خطة ، فقد تفيدني الفوضى والارتجال .. سأقف أمامها دون أن يكون في جعبتي كلمة جاهزة.. لكني سأقول ، سأقول ، سأقول

..وأحسّ بتوتر من واقع ضعفه وواجب أن يقول، فضرب الوسادة بقبضته وحاول أن ينام...وكان قطار العمر يتقدم به نحو محطة ،تقف فيها امرأة من سراب ،لا يمكن أن تتضح صورتها لقطار لم يبلغ محطتها تلك..

برزخ

من خلال الستائر الشفافة بدا له خيال الطائر الذي أيقظه بجلبة محببة ،مارس طقوسها على حاشية النافذة.. وبين نقر على الزجاج وسقسقة ابتهاج ،كان الصباح ربيعيا يميل إلى الصيف.. وللصيف حين يقتحم المشهد بداياته إغراء بالزرقة، والبحر، والصفاء، والشمس التي لا حولها غير طيور بعيدة في الفضاء.. أحسّ بالانتعاش وهو يتجه نحو النافذة ..فتحها بهدوء ..لكنّ الطائر الحسّاس لم ينتظر ..

كانت الحديقة غابة أصوات تتداخل فيها السقسقات بالشقشقات التي تنثر بأصابع اللجين في الصدر قطرات من ندى الانشراح ..

ومثل طفل يتذكّر واجبه المدرسي ، يغلق عمر النافذة مسرعا إلى خزانة الملابس يستعد للخروج ،فأمامه اليوم جبل يجب أن يزيحه عن طريقه ..

كـان كـثيرا مـا يضـحك مـن نفسـه ، حـين تفاجئـه صـورة دونكيخوت داخله وهو يقاتل طواحين الهواء..ولكمْ قاتل من طواحين هذه الموصلية بينه وبين نفسه..

وهو لا يذكر الآن كيف قطع الطريق بين بيته والجامعة في ذلك الصباح ، فقد استحوذت عليه الأسئلة التي تسبق المواجهة الأولى بين حبيبين .. وكان عليه أن ينتظر ساعتين ليتسنى له الظفر بفسحة ما بعد الدرس .. كانت الساعتان ثقيلتين ، ولم ينتبه فيهما من بين ما تحدث به المحاضر إلا لنتف قليلة ، وكان يعلل نفسه بنقل المحاضرة عن غيره ، وعلى كل ، فإنّ أمر هذه المحاضرة يبدو يسيرا أمام المحاضرة الكبرى التي تنتظره ..

لزم مقعده ليتأكّد من خروجها أوّلا .. وحين خرجت من المدرج أبطأ لحظة قبل أن يخرج هو الآخر.. كانت خطاه تقوده إلى حيث جلست على الكرسي الخشبي المستظل بشجرة السنديان الفارعة الطول ،التي تتزاحم فوق جذعها الأسماء والرسوم والتواريخ المحفورة ، بين قديم وجديد.. ولعله كان يراها في تلك اللحظة رسمه الجميل على ذلك الجذع..

اقترب منها مسلّما ، وردّت السلام وهي ترفع رأسها نحو

صاحب الظل الذي غزا حقل رؤيتها على الأرض في تلك الساعة..

كان يتوقّع منها ارتباكة لم تحدث، أما هو فقد تلبّسه من اضطرابه ما لعثم الكلام فوق شفتيه..

قال:

- ربما لا يحق لي أن أكلّمك ، لكني مضطر إلى ذلك .. لا يمكنني أن أشرح أكثر ، وإذا رضيت بأن تأخذي مني هذا الدفتر، فستجدين فيه ما يؤكّد احترامك ويشرح مقالي..

قال ذلك ولم يمدّ يده بالدفتر خوفا من رده أو زجره مما كان سيسبب له حرجا بليغا..

وأومأت برأسها بالقبول ،ومدّت يدها فأعطاها الدفتر في وجل، ثم انصرف لا يلوي على شيء،وراقبته مبتعدا ،وأخفت ابتسامتها حين رأته - وقد ظن أنها لم تعد تراه- يتوقف ويغمض عينيه ،رافعا رأسه نحو السماء ،مستجمعا أنفاسه التي قطّعتها المواجهة وحبسها الموقف العصيب ، ولعله أعجبها منه حياؤه وحسن خلقه ورقة تعامله ،فقد عاملها مثل أميرة في القصص القديمة ..

كانت أصوات الطلبة المتداخلة مع أصوات العصافير توحي إلى ليلى في تلك الساعة أنّها خارج دائرة المراقبة، فالكل مشغول بنفسه، لذلك حزرت أن لا أحد رآها تستلم من عمر دفتره، وقد شجّعها ذلك على استراق النظر إلى ما فيه، ففتحته ليخطف بصرها منه سطورا آثرت أن لا تقرأها في تلك الساعة لئلا تقتل إثارتها ، لذلك طوت دفة الكراسة وانصرفت ،وهي تمني نفسها بكنز ستستمتع باكتشافه تلك الليلة.

ونبّهها ظل صديقتها ميسون وهو يقترب منها ، فاستقبلتها ببسمتها المعهودة التي تخفي هذه المرة شيئا لم يكن معهودا ... ولم يكن في نيتها إخبار صديقتها بأمر هو بالنسبة إليها كتاب مبهم لم تقرأ منه حينها سطرا واحدا..

برزخ

حين رجعت ليلى إلى مسكنها ، كان إحساسها ينبئها أنها تحمل حياتها في صفحات ذلك الدفتر، ورغم أن فضولها كان يستعجلها لقراءة ما كتب إليها عمر، إلا أنها كانت تريد استبقاء متعة لحظات ما قبل الاستكشاف ، كما أنّ وجود رفيقتيها في السكن معها في ذلك المساء ،كان يدفعها إلى تأجيل الأمر حتى تأوي كل منهن إلى غرفتها، آنذاك يكون للقراءة ما تستوجبه من الطقوس والأجواء..

بدت سعيدة مثل فراشة..وقد اقترحت على رفيقتيها أن تكون هي التي تعدّ عشاء تلك الليلة، وهو ما أسعدهما، فقد أفسحت لهما مجالا لمراجعة دروسهما ، إضافة إلى أنّ سناء كانت تريد كتابة رسالة لأهلها في رفح ...

وطوال تلك الساعات التي امتدت من العصر إلى ما بعد صلاة العشاء، لم تكفّ أمواج التوقعات والاحتمالات في رأس

ليلى، عن رسم شاطئ يغمره المدّ وينحسر عنه الجزر.. وللنساء في مثل هذه الظروف أحلامهن الجميلة التي تطيل صبرهنّ ، لذلك وفي أغلب المعارك يسقط الرجال معترفين أولا ، بينما تحافظ النساء على تصلبهنّ ، رغم أنّ ما بالرجال من الجوى ، لا يُعد شيئا أمام ما يصيب النساء منه ، لكنّ المرأة تعتقد أنّ اعترافها أوّلا يُخسرها الرجل الذي لا تريد أن تخسره ، لذلك تعمد إلى المحافظة عليه بانتظار مبادرته .. فسبحان من يضع سره في أضعف خلقه.

كان الليل قد أرخى سدوله ، ولم يعد يسيطر على الوضع ويشق رداء الصمت المضروب على المكان ، غير صوت جدجد في الحديقة الخلفية للعمارة ، وقد عمدت ليلى إلى إشعال شمعة سوداء من علبة كانت قد جلبتها معها من العراق .. وهي تتذكر جيدا حين لفتَ الشمع الأسود نظرها في أحد محلات سوق "السرج خانة" الشهير في مدينتها الموصل ، ولم تكن قبل ذلك قد رأت شمعا بهذا اللون..لقد أحسّت حينها أنّ شمعة سوداء أقرب إلى تمثيل امرأة عراقية تلتف بعباءتها وتحترق ، أو تنتظر الحزن الذي سيقرع بابها يوما ، ما دام الاحتلال قد داهم الوطن

دون أن يقرع بابه.

وبرأيها فإنّ شمعة سوداء لا تختلف عن شمعة بيضاء حين تحترقان، فكلاهما تختفي حين تستأثر الشعلة فوقهما بخطف الأنظار..

كان على الشمعة في هذه الليلة دون ما سبق من ليال، أن تنفرد بالدموع، فتبكي لوحدها، وحقّ لليلى أن تخطف من ليالي الغربة ليلة دون دموع ...

حينما فتحته تحت الضوء الخافت المتراقص، بدا وكأن وجه صاحبه يلوح من خلاله بملامحه الأليفة، وتزايد نبض قلبها وهي تقلّب صفحاته لتتأكد من أنّ هذه الصفحة هي الوحيدة المكتوبة.. بينما كانت هناك أيضا بطاقة جميلة لمدينة الموصل، مكتوب على ظهرها: "إذا ابتسمتِ الآن وأنت تعبرين هذه الكلمات، فذلك يعني أنّني استطعت تلوين جزء من زهرة الجوريّ الحمراء".

وابتسمت للعبارة لتفسح له من قلبها في تلك اللحظة مساحة يمارس فيها العبث بأقلام التلوين مثل طفل في روضة للحضانة..

مررت كفّ يدها على كلماته بحنان تكشف قلبها لقلبها وأمرها لنفسها، ثم رحلت في عالم بنفسجي عبر حرف الميم الذي بدأ به بوحه بعد التحية..

" مرتبك وأنا أكتب إليك ، ومضطر ، فبعد أسابيع ستنتهي الدراسة، ويكون عليك بعدها التحليق إلى أجواء لا يبلغها جناحاي، وقد كان من كلام والدتي عنك ما شجّعني لتدبيج هذه الكلمات التي أرجو أن لا تعتبريها تجاوزا لحدودٍ تجاه ضيفة محترمة من بلد عظيم وعزيز..

ليلى..."

حين مرّ نظرها على اسمها في الرسالة أحسّت به متميزا ، ولعلها لأوّل مرت تشعر بهذا الرابط بين اسمها واسم ليلى العامرية حبيبة المجنون... لكن محطة الوقوف أمام اسمها لم تطل، فقد واصلت بعدها تحليقها في آفاق حلمها البنفسجي الأخّاذ الذي لم تعد تسمع فيه صوت الجدجد الذي لا يكف عن الغناء في الحديقة الخلفية..

"... ثلاثة أشهر يا ليلى ستمر بسرعة، وأنا قارب ممزق الشراع لا

بد أن يرسو على ساحل([1])، ومنذ أكثر من عام ونصف، وأنا أحاول أن أقول ما أقوله اليوم، لكن متّسع الوقت كان يقف إلى جانب ترددي ويطيل حبل صبري، أما اليوم وقد تجهّزت القوافل للرحيل، فليس لي من فسحة الوقت ما أرجئ فيه الأمر أو أؤجل فيه الاعتراف ، وأنا من المؤمنين بالمثل القائل: " إذا خفتَ فلا تَقُلْ .. وإذا قلتَ فلا تَخَف".

هذا ما اضطرني إلى أن أتجاوز بعض حدودي نحوك.. لا أستطيع أن أقول الكثير، لأنّ هذه الرسالة كفيلة بأن تقول كل شيء، حتى لو لم يكن فيها حرف واحد.. وقبل أن أراك لم يكن لعشيات المطر وهمسات السَّحَر في قلبي من معنى .. لم أكن قد اغتسلت في أنهار الضوء وشلالات القمر، ولا هزّني بيت من الشعر أو هودج من الشَّعر..

لكنني اليوم نادم على دراسة طب الأسنان بدل الأدب .. ففي صدري كلمات أكبر من شفاهي لا يختصرها سوى الشعر والشعر وحده ..فكيف أقولها ؟ أنت وحدك التي تملكين اللغة التي لا أجد في جعبتي منها كلمة واحدة، فإن شئتِ أن أقول لك أكثر،

[1] - الصحيح لغة: ساحل البحر وشاطئ النهر.

فأعطيني اللغة..إن شئت أن أرسم لك جورية فاتنة فهبيني جورية أرسم عنها .. فأنا لا أجيد قول الشعر ولا رسم الجوري إلا بمساعدتك..".

في تلك الليلة أعادت ليلى قراءة رسالة عمر مرات ومرات ، وكانت ضائعة بين القرارات وتائهة بين السطور، مثل طفلة صغيرة ضلت الطريق في مدينة مزدحمة، فهي لا تملك غير التلفت إلى الجهات علّها ترى ما يدلها..

ولئن كانت بواصل القلب مضبوطة عند ليلى، فإنّ بواصل العقل كانت مضطربة أمامها تشير إلى الشرق مرة وإلى الغرب مرة لتحيلها إلى أسئلة إجاباتها أسئلة.. وأخذتها سِنة من النوم وهي تحتضن الدفتر وتحتضن فيه أسئلة مستقبلها الذي انفتح فجأة على احتمالات لم تكن في حسبانها...

برزخ

أصبحت مثل فراشة في يوم عاصف..لها جناحان من السعادة لكن هبوب رياح الأسئلة حولها يعيقها عن الطيران.. على الجدار كانت الساعة تشير إلى السابعة ، وبدا لها أنّ لهذا الصباح مستلزماته الخاصة، فهو ليس كغيره من الصباحات التي مرت.. إنّ الكرة في ملعبها الآن.. وسيجثم على كاهلها واجب الرد إما سلبا وإما إيجابا.. ثم أنها ستكون أمام مسؤولية أخرى في مواجهته..فكيف يجب عليها أن تتصرف معه؟ أمِثل ما مضى من الوقت؟ أم أنّ ما طرأ يحتّم عليها تخصيصه بما ليس لزملائها الآخرين.. ؟

كانت تمسك بفنجان القهوة الذي تنبعث منه رائحة الهيل الشامية دون أن ترفعه إلى شفتيها.. فقد سرقها الخيال من جوّها وطار بها إلى أجواء أخرى ..

تُرى من اللائق أن تبتسم له حين تراه مثلا ولو بسمة خفيّة لا

يلاحظها غيره؟

أم أن من الواجب أن تكلّمه وجها لوجه لتفهم أكثر وتقرر أكثر..؟

لكن.. القرب منه أكثر يعني التورط أكثر، وآنذاك يتعطّل عمل العقل ليكون القرار لقلبها فقط ..والحب على القلب سلطان .. وهي تخاف قلبها..

امتلأت رأسها بأسئلة مشابهة للأسئلة التي كانت تملأ رأس عمر طيلة عام ونصف .. ومشكلة ليلى في هذا الأمر أنها ما عندها مشكلة ، وهو أمر يخلط أوراقها ويجعلها تصنع في طريق أحلامها متاريس أسئلة وموانع من خيال.. كانت شبيهة بممتحَن يتوقع أسئلة صعبة في امتحان مصيري لنيل شهادة عالمية، وحين يجد على ورقة الامتحان أسئلة بسيطة يمكن لتلميذ في المرحلة الابتدائية أن يحلّها ، تذهب به أفكاره إلى أنّ هذه الأسئلة ما هي إلا خدعة، وأن إجاباتها يجب أن تكون صعبة غير تلك التي يعرفها تلميذ الابتدائي، لذلك يبحث الممتحن عن إجابات صعبة خاطئة خارج الصواب السهل لتلك الأسئلة... ولم يكن أمام ليلى ما يجعلها تفكّر وتعيد التفكير،

فهي تحب هذا البلد، ولئن صدقت مع نفسها لاعترفت أنها تحبّ عمر، وأنها اكتشفت إعجابه واهتمامه بها منذ شهوره الأولى، وأنها كانت تختلس إليه النظر خفية لتملأ بصورته في غيابه أحلامها التي تطير بها إلى عالم النجوم الوردية والقمر الأشقر المكتمل ونهر النور المتلألئ فوق هامة مدينة قسنطينة التي طالما راقبتها في الليل من خلال نافذتها وهي تحتضن من خلالها أنوار الموصل الأسيرة.

عيناها تبحثان عنه في المدرج.. ولم يكن موجودا ..ذهبت بها الهواجس كل مذهب.. أترى أحلامها تنتهي هكذا عند بداياتها ؟ أم أنّ شجاعته قد خانته في الحضور فغاب تفاديا لردة فعل قد تصدر عنها ؟

أما عمر فقد كان في تلك اللحظات في سيارته المتوقفة قريبا من الجامعة، مستغرَقا في مكالمة، ويسراه لا تتوقف عن العبث ببعض الأزرار على لوح القيادة في سيارته...وكان ذلك دليلا على توتّره..

أما الذي كان على الخط في تلك اللحظة فابن عمه عمر، وقد كانت إرادة جده أن يسمي حفيديه باسم عمر.. وقد تزوّج عمّ

عمر الذي درس الفيزياء بالولايات المتحدة وعمل محاضرا في جامعاتها بعد التخرّج من امرأة أمريكية له معها ولدان وبنت، وعمر هو ثاني أولاد عمه، وقد كان في تلك الساعة يودّع عمر لأنّه سيُرسَل إلى العراق، فهو ضابط في الجيش الأمريكي، وقد داخل حياته من الهمّ ما نغّصها بعد أن أقدم الضابط المسلم نضال حسن الأردني الأصل على قتل جنود أمريكيين في قاعدة "فورت هود" ...

لم يعد الأمريكيون يثقون في الجنود المسلمين أو الذين هم من أصول عربية ، لذلك فإنّ عمر قد تعرّض بعد عملية نضال حسن إلى تضييقات كشفت له مدى التخوّف الذي يحمله الجيش الأمريكي في أحشائه، كما كشفت له كذب دعاوى الاندماج والوطنية القادرة على إذابة الفوارق ، وأمريكا في نظره لم تفعل أكثر من أنها تجاوزت عنصريتها تجاه الهنود الحمر، وعنصريتها تجاه السود بفعل نضالهم ،إلى عنصرية جديدة تجاه العرب والمسلمين.. وقد عاش عمر مرحلة صعبة، لكنها فتحت عينيه على حقائق لم يكن ليفهمها دون فقدان التوازن الذي يراه مكشوفا في الجسم العسكري الأمريكي،

حيث الخوف الذي يدمّر نفسيات الجنود، والشكوك التي تشرخ ثقة هذا بذاك، والمعاناة من الفشل الذي لم يعد خافيا في أفغانستان والعراق ،حيث لا يرى الجندي سوى نعش عائد إلى الأهل ملفوفا في علم ...

كان الضابط عمر يتحدث من قاعدته في أمريكا وهو يبكي..أما الدكتور عمر الذي كان توتره قد هدأ ليحل محله الحزن والإشفاق على ابن عمه ، فقد كان أيضا يبكي ..

- ماذا أفعل يا عمر؟

كان السؤال أكبر من أن يستطيع عمر الإجابة عنه، لذلك احتضن شجرة الصمت وهو يمضغ ورقة المرارة في غصنها الشائك ..وانتهت المكالمة ليظل السؤال الآتي من البعيد مفتوحا على كل الإجابات وكل الاحتمالات ...

أدار عمر مفتاح سيارته وقد اختلطت في خياراته الخيارات، فلم يعد يعرف إلى أين يذهب..وأي اتجاه يأخذ.. لكنّه كان بالتأكيد أقلّ ضياعا من ابن عمّه .. وكان أشد ما يؤلمه أنّ ابن عمه سيذهب إلى العراق لقتل ليلى العراقية، وليس بالضرورة أن تكون ليلاه هو..لكنها في كل الحالات ليلى.

برزخ

كان عليها أن تعيد له دفتره، أو هكذا كانت تبرر لنفسها .. وكان رعب موحش يسكنها خوفا من أن يغيب لليوم الثاني أيضا.. كان في قلبها نورس يضرب أعمدة قفصه الذهبي، يستعجله الشوق ويستحث جناحيه الفضول.. وحين لم تستطع مقاومته أطلقته وأتبعته عينيها ، فحرّك ريشه، وقَبَضَ وصَفَّ، ونأى في الجوّ نحو الجامعة..

لقد مرّت دقائق لكنه لم يأت، وقد بدأ شك أسود يتدفق كالحبر على بياض صفحة الأمل والحلم.. وبينما هي كذلك، إذ دخل يسبقه عطر "المانوليا"، وهو النوع الذي بدا أنه يحبّذه، فلم يحدث أن غيّره طوال السنتين اللتين جمعتهما في الدراسة.

ولولا معرفتها به لقالت أنه يمارس معها حربا نفسية يحرق فيها أعصابها ويتلف تؤدتها .. وحين خطفت نظرة تجاهه، رأته ساهما ضائعا في أفكاره ، فأشاع ذلك في قلبها من الطمأنينة الكثير ، وجفّف عن أوراقها البيضاء مساحة الحبر

الأسود..والمرأة تحب في الرجل تأملاته صامتا ، لأنها تفسرها حسب ما تشتهي تفكيرا فيها .. ولم يكن يشوب يقينها من الشك ذرة في تلك اللحظات أن فتاها يفكّر فيها ويطلق لجواده الأبيض العنان في فضاءات حالمة، يحملها فيها خلفه ويطير بها بعيدا ، كما هو المأثور في قصص خيال الصبايا مثلها.

ومثلما انتظر مرور ساعتين ثقيلتين قبل أن يسلّمها الدفتر منذ يومين، فقد كانت هي بدورها تعبر دربا متطاولا لساعتين ستسلمه بعدهما الدفتر..

تحت الشجرة ذاتها حيث تزاحمت على الجذع الأسماء والتواريخ والرسوم..وحيث أعطاها الدفتر، كانت تجلس في انتظار لحظة سانحة ..كانت كأنها تخطط لمعركة تعلن فيها عليه الحب..حرب الحب.. ورأته يتحدّث في هاتفه الجوّال ..وتمنت أن تطول المكالمة بعض الوقت، يتسنى لها فيه استجماع شتاتها وتنظيم صفوفها وتنفيذ قرارها..

أما هو فبعد أن أكمل مكالمته ورآها جالسة حيث كانت، كان عليه أن يسأل نفسه : هل عليه هذه المرة أيضا أن يبادر ليقتحم عالمها؟ ولو لم يكن معه من دافع يبرر ذلك غير استرجاع دفتره

لكن كافيا.. ولعله التمس لها من الأعذار ما يجعلها تمتنع عن المبادرة بالاتصال به ، فلربما يمنعها الحياء أو ضعف الإرادة، أو انتظار مبادرته، فهو الرجل، والإقدام للرجال..

ولم يدم تردده طويلا ليكون واقفا حيث جلست، وقد سلّم فتراقصت في قلبها الأزهار وغرّدت الأطيار وتلوّنت جميع أوراقها بالبنفسجي، وحين ابتسمت تضرجت وجنتاها بالجوري حمرة وخفرا ، ومدّت يدها إليه بالدفتر ، دون أن ترفع نحوه وجهها المتورّد...

لم يكن عليه أن ينتظر ما تقول، ففي قلب هذا الدفتر ولا شك ما يريد منها أن تقوله وما يريد هو أن يسمعه..

كان وهو ينأى بظله في تلك اللحظة كمن ظفر بانتصار في معركة مصيرية .. فعلى الأقل لم يحدث ما تخوّف منه من صدّ أو إثارة للمشاكل مما يخشاه على سمعته وصورته بين الآخرين..فماذا لو أنها صرخت في وجهه ووبخته وهو يعطيها الدفتر؟ كان ذلك سيكسر قامته ويشرخ جذعه مثل شجرة بلوط عتيقة.. لكن الأمور سارت على ما يرام ووصلها منه ما يريد إيصاله..ليس هذا فقط ، بل لا شك أن جوابها قد وصله

أيضا، ولا يحتاج الأمر إلا لساعات ليرسو القارب على ساحل المـوج المضـطرب ، ويتـنفس البحّـار الممـزّق القلـب كشـراع الصعداءَ..

كان كمن وصل إلى البرّ بعد رحلة جويّة طويلة وسيئة .. وأثناء الطريق إلى بيته كان يقلّب احتمالات جوابها في رأسه..لكنّ لون الأمل كان أكثر وضوحا بين عينيه..وكان سعيدا كثيرا ..وخائفا قليلا.. وواقفا قاب قوس من باب مدينة الحلم أو أدنى..

برزخ

ساهما بدا على طاولة العشاء في تلك الليلة..أمّا أبوه فقد سأله إن كان هناك ما يزعجه.. وأمّا أمه فقد التزمت الصمت لمعرفتها بالسبب الحقيقي الذي حاول مربكا وجاهدا إخفاءه عن أبيه..

في تلك الساعة الحميمية التي تجتمع فيها الأسرة، أحسّ عمر أنّ كل المحطات التي تفصله عن لحظة فتح الدفتر تبدو ثقيلة، تحرق أعصابه وتستنزف صبره..

الإضاءة الخافتة المنبعثة من المصابيح المخفية في ثنايا التصميم الجميل لسقف القاعة أعطت اللحظة جوّها الرومانسي الحالم ، لكنّ عمر لم يكن هناك رغم أنه كان هناك..وحين يحلّق الخيال بعيدا، يترك الجسم محاصَرا بمعنى الغياب..

حين عاد خياله من رحلته تلك، شعر عمر بالعيون تحاصره من كل جانب... ولكي لا تتحول النظرات التي تحمل في ثناياها الشك والاستفهام إلى أسئلة يعلم جيدا أنه لا يستطيع الإجابة عليها، انتصب من على كرسيه مثل سهم أفريقي وقرّر

الانسحاب ...

كانت الأمّ قد قررت لحظتها أن تصارح زوجها تلك الليلة، بأمر عمر مع فتاته الموصلية التي طيّرت أسراب طيور استقراره في عاصفة لن تنتهي إلا بما يُطمئن طيور القلوب عادة..

في غرفته المطلة على الحديقة جلس عمر على حافة السرير وقد أخذ الدفتر من محفظته..

كانت الغرفة بلون ورق جدرانها الهادئ تشيع الراحة.. وبرائحة معطّر الليلك تنعش الروح..

في حذره وهو يفتح الصفحات، بدا عمر كمن يعبر حقل ألغام... كل صفحة يفتحها يتنفس عندها الصعداء حين لا يجد عليها كلمة تنفجر في كيانه أو تضع حدا لأحلامه.. لكنه كان في داخله يتمنى أن لا تحترق أعصابه أكثر في البحث عن متفجر يهز كيانه ويسقط كل الجدران القائمة في طريقه.. صفحة صفحة..وكلما تقلص عدد الصفحات الباقية ،ازداد قلقه واضطرابه..

أيمكن أن لا تكون قد أجابت عن سؤاله وردت على جوابه؟!

كان يحسّ بوجود شيء في الدفتر.. يخيّل إليه من ملمسه أنه ورقة

مطوية..

حين انتهت رحلة البحث المضنية في حقل الألغام ذاك دون أن تقع قدمه على لغم جميل، كان الشاب المتوتر قد بلغ المحطة الأخيرة التي كان يبحث عنها .. وكانت دهشته .. زهرة حمراء قانية من أزهار الجوري .. ولأنّ ليلى لم تجب بكلمة واحدة على رسالته، فقد بدا له لحظتها أنه قد استلم بياض الصفحات جوابها الذي لا ينسف الجدران القائمة بينه وبين الحلم، بل ينسف الحلم ذاته وتذريه في الريح ..

احمرّ وجهه وازدادت حرارته، أو هكذا كان يحسّ في تلك اللحظة.. أيُعقل أن تكون الجورية هدية اعتذار؟

أم أنّها وسيلة الفتاة لتزجّ به في قلب احتمالات العاصفة أكثر؟

كانت تلك الزهرة لغزا مشفّرا يستعصي على فهمه..

أترى لزهرة الجوري معنى في العراق؟ بحيث أنها تدل مثلا على أن الفتاة مخطوبة أو ما شابه ذلك؟

وإذا كان ذلك كذلك ، فأنّى له أن يعرف ذلك؟

في الهند وحينما يبدي رجل بامرأة إعجابا ، تعمد إلى وضْع نقطة وسط جبهتها، لتقول أنها مرتبطة..فهل تكون الجورية

الحمراء هي النقطة الهندية التي تكسر كل الأحلام وتنهي السطر..

النقطة صارمة قوية ..تحسم الأمر في نقرة قلم.. الفاصلة أكثر انفتاحا وأقل صرامة..الفاصلة تعطيك إحساسا بأن الأمر يتسع للأخذ والرد .. لكنه لم يكن يعرف أبدا إن كانت تلك الزهرة نقطة أم فاصلة..

وهل تلك الزهرة القانية التي يبست بين أضلاع دفتره تعني أن تيبس أختها التي بين أضلاعه هو؟

وما الذي قد يستطيع فعله بعد هذا ؟

أن يتحول إلى مطارد سمج يطلب منها في إلحاح أن تحبه؟!

كانت الدنيا قد أظلمت في عينيه وبدا وكأنّ الحياة مجرد سطر ارتسمت نقطة نهايته في تلك اللحظة، وحين ترتسم نقطة النهاية فإن المرء يكون أمام خيارين، إما أن يكسر القلم ليجف الحبر على عالم تنهيه نقطة، أو أن يستأنف سطرا جديدا..وقلبه ليس صفحة يمكن له بسهولة أن يستأنف عليها بعد النقطة سطرا جديدا..

كان يدرك أنّ من المستحيل إقامة بناء جديد على أنقاض بركان

لا زال يهـز الأرض ولم يهمـد بعـد.. ثـم كـم يحتـاج المـرء مـن الوقت لإزاحة الأنقاض عن قلبه بعد الزلزال ؟

مثل طفل صغير يعلوه الموج ، كان عمر بحاجة في تلك اللحظة إلى أن يصرخ..أن يستنجد..أن يلقي بوجهـه علـى صـدر أمـه أو أبيه ويبكي ..

ما كان يسرّي عنه بمثل فتحة الزر، هو فقط شكه الـذي يخـالط به البياضُ القليلُ السوادَ الكثيرَ الذي توحي به الرسالة الحمراء المجففة..

هل توحي الزهرة بغير ذلك؟

مـاذا لـو كـان معناهـا أن الفتـاة مطلقـة وهـو مـا قـد يـدل عليـه الجفاف؟

كمن يبحث عن زوايا للـدائرة، كـان عمـر أشـبه بكـرة صـغيرة علـى سـطح المحيط الأطلسـي..يهزها المـوج الصـاخب فترقـص رقصة الذبيح..

ومثلما العرائس الخشبية الصينية التي تحمل كل دمية فمنها دمية أصغر في جوفها، كانت الأسئلة في رأس عمر تفضي إلى أسئلة ، وكـل سـؤال يفـتح بابـا لسـؤال آخـر.. لـذلك فقـد أحـسّ أن

جمجمته لم تعد تتسع لكل هذا الكمّ المتدفق من علامات استفهام متكاثرة في تشابك..

وضع الدفتر على السرير وقام يذرع الغرفة ، علّه يُخرج بالمشي جزءً من التوتر الذي يسكنه ويهز كيانه مثل شحنات كهربائية عالية..

كان الليل قد ضمّ بين جناحيه كل الطيور لتنام، لكنّ عمر كان يحس في تلك اللحظة أن طيور النوم قد حطّمت أقفاصها في عينيها، وطارت إلى ستار النافذة متعلقة فيه بوجل وترقّب... وكان ذلك يعني ليلة بيضاء طويلة، لزهرة حمراء غامضة..ورغم أنه لم يكن يحفظ لامرئ القيس قصيدته حول الليل الطويل، إلا أن قلبه أنشد في الأسحار: "ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ"...

حينما حلقت طائرة النقل العسكرية الأمريكية من طراز سي ١٣٠ جي، كان الضابط العربي الأصل الأمريكي الجنسية عمر يلقي نظرة وداع، على ديار يخلّف فيها وراءه، أسرة كان يحس دوما أنها هي الوطن الحقيقي في الغربة التي تمزّق روحه في هذا البلد الذي له قلبٌ، نصف الحب فيه من نحاس ، والنصف الآخر نابض بالكراهية..

كانت الطائرة مكتظة بجنود أمريكيين من أصول مختلفة.. منهم من يذرف دموعه، ومنهم من يقلّب ألبوم صور هروبا من المستقبل المخيف..أما جاك الذي يجلس إلى جانب عمر فقد كان يعتمر القبعة اليهودية وهو يتأمّل سطورا من العهد القديم..

لم يكن عمر متدينا، وهو لا يتذكّر أنه حمل المصحف إلا مرات قليلة في مناسبات أو لحاجة.. لكن الحياة العسكرية علّمته التعصّب للذات، ولم يكن بالإمكان أن يكون جامدا ومن دون إحساس وهو يرى هذا الحجم من الأحقاد والكراهية التي تحاصر كل ما هو عربي أو إسلامي، متهجمة متهكمة ..

وسط السماء الصافية كانت الطائرة تشق طريقها نحو المجهول .. كان الأمر بالنسبة لكثير من جنود المارينز هؤلاء، كمن سيفتح

بعد ساعات كتابا بلغة أخرى لا يفهمها ..ولم تكن الصورة التي كوّنوها عن بغداد ، سوى صورة الحرب التي تُفقد الصواب وتحرق زهور الفرح..

عبر أجهزة الصوت جاء صوت إحدى المضيفات المجندات يقول: " ..نتمنى أن تكون الرحلة ممتعة... ستحلق بنا الطائرة مرورا على مناطق عدة قبل الوصول إلى محطتنا القادمة ، وسنوافيكم بموجزات تعريف عن المناطق التي نمر بها تباعا عند بلوغها.. نحن ذاهبون لأداء واجب أخلاقي..".

لم ينتبه عمر إلى ما قالته المضيفة بعد هذه الكلمات ، وقد خطفته لفظة "الواجب الأخلاقي" وطارت به بعيدا في عوالم الخيال والتأمل..

كان يدرك أنّ تركيز القيادة العسكرية على التعبئة العقدية يعني أنّ هناك أزمة كبيرة تعصف بالجانب الأخلاقي والعقدي للمجندين في الجيش.. ومنذ أسبوعين كان قد تدرّب كما تدرّب غيره من المرحلين إلى العراق وأفغانستان على بنادق أوتوماتيكية جديدة لشركة "تريجيكون" نُقشت على مناظير الرؤية فيها إشارات إنجيلية تشير إلى آيات من إصحاحات

الإنجيل ، متعلقة بواجب نشر النور..ولم يكن عمر قد اقتنع يوما أنّ هؤلاء المجندين الذين عرف فيهم أسوأ ما يمكن أن يكون عليه المرء من الشذوذ والانحراف، يمكن أن يكونوا حملة للنور فعلا ، أو أنبياء للعالم جُدُدا للعالم..

كانت عينا عمر متعلقتين بشاشة التوضيح قبالته، حيث كان يتابع رسما للطائرة وهي تتحرك في الخريطة مبتعدة عن مدينة انتمى إليها مواطنة ، ومقتربة من مدينة ينتمي إليها دينا ودما..وتمنى أن يحدث شيء ينقضه من تناقضه ، ولعل آخر ما تبقّى في سلة الممكن من ذلك ، هو أن تسقط تلك الطائرة فتنتهي بذلك هواجسه ورحلته لعالم لا يجد طريقة للتعامل فيه..فكيف سيكون بمقدوره أن يوجّه رشاشه ليبذر صدر أو ظهر امرأة من العراق بالرصاص..امرأة قريبة المعنى من أمّه ؟

توغّلت الطائرة الأمريكية في أجواء الشرق الذي كانت ألسنة اللهب تمتد عبر خريطته ..من فلسطين إلى العراق .. أفغانستان ..باكستان..الصومال..اليمن.. جنوب السعودية..ليكون حال الشرطي الغربي للعالم آنذاك ، كحال الذي يمسك بقِربة ماء تكاثرت ثقوبها ولم يعد له من الأيدي ما يسد به تلك

الثقوب..لـذلك لم يكـن الجنـود الـذين علـى مـتن الطـائرة متحمسـين ولـو قليلا ، لمعركـة يـدركون بالأصـل ، أنهـا تشـبه محاولة للإجابة عن سؤال خاطئ.

وحين لفحتهم صفعة من حـرارة بغـداد وترامـى صـوت الأذان إلى أسماعهم من بعيد وهم يهبطون من الطـائرة ، ازداد بعـض جنود إشارات الإنجيل يقينا أنّهم كانوا في الرحلة الخطإ لعالم له نـوره الخـاص المتجـذر في التـاريخ والقلـوب والرمـل ، والـذي يستحيل أن يفرّط فيه لأجـل النـور الـذي يحملـه هـؤلاء الجنـود الذين سيقوا إلى هنا لنشر الموت والفوضى ليس إلا..

ودمعت عينا عمر وهو يتأمل عن بُعدٍ المدينةَ المؤتزرة بنخلـها .. وأحسّ كأنّ أمه تنتظره فيها..

لا يعلم بالضبط كيف قاده تفكيره إلى وجوب مواجهتها، ولا من أين اكتسب فجأة كل هذه الجرأة الشبيهة بجرأة فاقد الأمل الذي لا يهمه أكثر من أن يفقأ كل الفقاعات الوهمية ليستوي على بر ، حتى لو كان ذلك البر ينقض كل غزله ويهشّم كل أحلامه..

كان عليه أن يفعل ذلك ليخرج من الدائرة الضيقة التي يزداد ضغطها على صدره..

لقد وجدها حيث خمّن أن يجدها.. تحت ظل الشجرة التي سلّمها عندها الدفتر ثم استلمه منها.. ولم يكن يبدو عليها الاضطراب أو التشوّش.. لذلك كانت الصورة تحمل تناقضاتها بين شاب يبحث عن جواب أخير ينهي حلمه، وفتاة تبحث عن سؤال أوّل تبدأ به أحلامها، لذلك لم تفهم السبب الذي يعكّر صفوه ويغري الريح بالغيوم على سماء وجهه، بينما كان وجهها مشرقا كصباح ربيعي بهيج..

كانا على نقطة تجمع دربيهما المتناقضين، دربها المقبل ودربه المدبر..و لاتجاهات الدروب آثارها على فرحة القلوب..وقد كانت سعيدة حدّ الطيران مثل عصفور منتشٍ..بينما كان هو

حزينا حدّ الطيران مثل ريشة في مهبّ العواصف التي لا ترحم.. كان خائفا من كلمة تطوّح بآماله بعيدا خلف خطوط الحلم ..وكانت هي مستعدة لاستقبال كلمة تغرز جذورها في تلك الأرض كنخلة موصلية عربية أصيلة..

قال: لم تجيبيني..

قالت: بل أجبتك..ألا تفهم لغة الورد؟

قال: لا أفهم لغة الورد الجاف..

قالت: ألم تقل لي في رسالتك باللفظ: " أنتِ وحدكِ التي تملكين اللغة التي لا أجد في جعبتي منها كلمة واحدة، فإن شئتِ أن أقول لك أكثر فأعطيني اللغة..إن شئتِ أن أرسم لك جورية فاتنة فهبيني جورية أرسم عنها .. فأنا لا أجيد قول الشعر ولا رسم الجوري إلا بمساعدتك..".

وذهل عمر من دقة حفظها لما كتب..ولم يكن ذلك غريبا، فقد قرأت رسالته أكثر من عشرين مرة ، تماما كما قرأ هو احتمالات زهرة الجوري عشرات المرات طيلة ليلة كاملة..

تلك كانت أجمل لحظة يعيشها عمر..أحسّ بجناحين ينموان على كتفيه، يدعوانه للطيران..شعر بأنّ صرخة عالية تستجمع

قوّتها في حنجرته وتنتظر منه الإذن لتدوّي..فكّر في أن يقفز ..في أن يجري بين طلبة الجامعة من فرد إلى جماعة ينبئهم بالخبر العاجل..

هي ذي فتاة أحلامه ومعقد مشاعره ،تعطيه - كما طلب- جوريةً يرسم عنها..وأحسّ أنّ تلك الموصلية البارعة الجمال التي تجلس مُطرقةً خجلا أمامه قد سلّمته مقاليد حكم مدينة قلبها، ووضعت في يده أعنّة جياد عربة حياتها ..وأنها وهبته الزهرة التي يرسم عنها ،ولم يعد له مبرر في الامتناع عن رسم الجوري.. ولم يتمالك نفسه وهو يقول لها بكلمة نصفها حروف ونصفها ابتسام:

- أنت رائعة..

وأطرقت الفتاة أكثر وقد أغمضت عينيها ، ولعلها طارت مع الكلمة التي سمعتها منه للتو والتي زادها مده لرائها فتنة قريبة من سحر النشيد الذي يسبي القلوب ويأسر الأرواح..

لقد أحسّ أنه اكتفى منها بذلك، وأنّ قلبه لن يتسع لأكثر من دهشة المفاجأة التي واجهته بها ..لذلك قرر أن ينسحب، أو بالأحرى أن يسحب قلبه الصغير من تدفق نهر وردي لن

يتحمّل مواجهته .. ودون أن يأخذ رأيها قال وهو ينصرف :

- " ترغب والدتي في استضافتك أنت ورفيقتيك في السكن ، غدا على العشاء .. ستأتي مع والدي لأخذكن..انتظرنها بين العصر والمغرب..الأعذار غير مقبولة..

وغاب في الساحة بين الطلبة.. وبقيت هي مسمّرة إلى جانب جذع شجرة تحمل الكثير من الأسماء والتواريخ.. وكانت تحس أنّ يدا تمتد دون إذن منها لتحفر على قلبها حرفا ورسما صغيرا .. وأسلمت نفسها لأحاسيسها تلك ، ولم يوقظها من أحلامها غير ورقة سقطت متهادية على يدها من تلك الشجرة ..وقامت وهي تحس أنها بحاجة إلى قلوب أخرى ، فقلب واحد لا يتسع لكل ذلك الإحساس الذي داهمها كجحفل جيش من ضوء وحرير معطّر..

وانتصبت تجرّ أقدامها في شبه خَدَر..

برزخ

كان "مارسو" قد أطلق النار على المواطن العربي ، وحين قررت ليلى أن تتكلم ،كانت قد بلغت هذه الجملة في الرواية التي كانت تمر عليها بعينيها :

""... تشبثت يدي بالمسدس ، وها هو الزناد يلين تحت أصابعي ، وها هي ذي الضوضاء الجافة المرتفعة التي من خلالها بدا كل شيء ، نفضت العرق والشمس ، وعندها أدركت أنني كنت بالفعل قد حطمت هدوء ذلك اليوم ، وكسرت صمت ذلك الشاطئ الذي كنت سعيداً فوقه.. "

ولم تكن تلك الجملة سوى سطور في رواية "الغريب" للروائي الفرنسي ألبير كامو..

حينها حاولت الفتاة المشتتة الذهن أن تزيح مللها وتكمل القراءة، لكنها أدركت أنها فقدت التركيز الذي يجعلها تستوعب ما تقرأه..ووجدتها فرصة مناسبة لتزف إلى صاحبتيها سناء وعائشة الخبر، فأفرجت عن ابتسامة لها ألف معنى وهي

تخبرهما بأمر الدعوة الموجهة إليهن، ورغم أنها صاغت الخبر بذكاء وبأنّ السيدة جمانة هي صاحبة الدعوة، إلا أنّ البنتين كانتا تدركان من التحوّل الذي طرأ على رفيقتهما في الأسابيع الماضية أنّ عصفورا دوريا ذهبيا صغيرا قد سكن قلبها وملأ كيانها سقسقة وغناءً..وسألتها الفلسطينية سناء وهي تريد أن تحصل على جواب يؤكد ما تميل إليه من الظن:

- وهل كلمتك السيدة جمانة ؟
- الحقيقة...

كان تلعثم ليلى في الإجابة عن سؤال سناء قد وشى بكل شيء وصدق ظنّ الفلسطينية التي استدارت بحركة ماكرة إلى عائشة وابتسمتا..

- يا بنت هل تظنيننا ساذجتين..ألا تعلمين أنني من فلسطين التي جنّن أطفالها أكبر زعماء الإسرائيليين وجلطوا شارون نفسه قبل أن يودعوه إلى عالم الأنابيب وما إلى ذلك من أجهزة الإنعاش؟

وانفجرت البنات الثلاث ضاحكات .. وكان الذي يجمعهن هو أنهن يغرفن جميعهن من نهر الغربة، ويقتسمن رغيفها البارد

جرّاء البعد عن الأهل والديار، وقد كانت مثل هذه الدعوة مناسبة لإذابة بعض الجليد الذي يلازم الغرباء..

حينها لم تكن ليلى تحسّ بوقع حذاء عسكري يطأ خريطة العراق في قلبها، ينتعله فتى عربيّ فاقد للبوصلات تلفه الفوضى ...

ولم يكن قد مرّ على دخول عمر إلى القاعدة العسكرية بالموصل سوى يومين ، لكنّه كان خائفا.. ولم يكن خائفا فقط من أن يموت، بل كان أيضا وأكثر خائفا من أن يَقتُل..

وهو يدرك أنه ما جاء هنا للسياحة ولا للتسوّق.. وفي الخوف ينكمش كل شيء في الزوايا الضيقة.. الحلم والفرح والفكر .. وقد روى له أحد الصيادين مرة أنّ الصياد الماهر هو ذاك الذي يباغت الغزلان فيرديها دون مطاردة، وحين سأله عن السبب أجابه بأنّ مطاردة الغزال تجعل لحمه يجفّ من الماء ،وهو ما يُفقده قيمته ويجعل طعمه كطعم الكاغد ..ليس الجري هو فقط ما يجفف لحم الغزال من الماء ،بل الخوف ..الخوف أيضا يفعل ذلك..

ويذكر جيدا أنّ ذلك الصياد الذي كانت تجمعه بأبيه صداقة

قديمة، قهقه في حفنته حين سأله عمر: أيعقل أن يفعل الخوف كل ذلك..؟ ليجيبه :

- يقول أطباء التشريح: لعله لم يحدث أنّ أحدا من المنتحرين الذين يتردون من أماكن شاهقة كالعمارات والجسور لم يحسّ بالندم في وسط المسافة قبل أن يصل إلى الأرض.. لذلك ينكمش المخّ في الجمجمة ..تماما كما ينكمش طفل صغير في زاوية في مواجهة رعب ما..

كان عمر يتذكّر كل ذلك وهو لا يكفّ عن الطّرْق على هيكل الشاحنة العسكرية التي كانت تتأهب لتمرق خارج أسوار القاعدة العسكرية حاملة معها مجموعة من جنود المارينز للقيام بمداهمات في تلك الساعة ، وكان من بينهم عمر الذي أثار انتباه بعض زملائه بقبضته التي تدق حديد الشاحنة طَرْقا شبيها بوقع رقصات الألم عند الزنوج الأفارقة المرحّلين في الأصفاد عبيدا إلى العالم الجديد...

منقّلا بصره في شوارعها ،بدت الموصل في تلك اللحظة منعطفا مفتوحا على كل دروب الموت، أو النجاة المفتوحة على موت آخر مؤجل..وشعر عمر كأنه في حلم..فما الذي جاء به من

هناك إلى هذه الديار البعيدة ؟

ولم يكن يجد جوابا مقنعا لبشري يقطع آلاف الكيلومترات ليجيء إلى بشري آخر، فقط ليحمل له الموت و التشرد والألم..هل خُلق الإنسان لأجل هذا؟!

حينما توقف رتل الشاحنات في شارع ضيق ونزل منه الجنود وهم يحثون الخطى ويستحثونها بألفاظ متسارعة صارمة.. أحسّ عمر أنّ ساعة الامتحان قد اقتربت ..وفي الداخل لم يكن في البيت الذي حطّم الجنود بابه بأحذيتهم، سوى عائلة فقيرة يتقافز الخوف في عيونها مثل غزلان صغيرة زرعت طلقةٌ مدويّة في مسارحها الفوضى..

بدت سحنة الأمّ أربعينية شاحبة ،وهي تقف جامدة مثل شجرة يابسة فقدت أوراقها وخضرتها، وقد التصق بها أبناؤها الثلاثة ..بينما لم يكفّ زوجها عن محاولة إطلاق جُمل إعلان براءة تختلط فيها العربية بالإنجليزية فينتج عن ذلك خليط هجين شبيه بخليط المارينز وجنود النظام العراقي في قواعد الاحتلال..كان الرجل يحاول أن يقول فقط أنه وعائلته لم يفعلوا شيئا..

كان جنود المارينز يحاولون كسر الخوف من الخطر المحتمل في مثل هذه الحالات بالضحك وإطلاق النكت..ومدّ أحدهم يده إلى المرأة التي صاحت مذعورة مثل فرس شبت النار في كل شيء حولها، وأدركت أن لا مفر..

وحين حاول صاحب البيت الدفاع عن زوجته، أمسك به جندي ضخم ودفعه بعيدا ليرتطم بالحائط ويقع على الأرض.. نازفا، لم يجد الرجل ما يدفع به السوء غير كلمات رجاء ضعيفة يتوسل بها إلى الجنود:

.."أرجوكم..أرجوكم..."...وعلى وقع كلماته تلك تقاطرت على الأرض من وجهه قطرات حمراء قانية، وأخرى من ملح وماء..

جرّ الجندي المرأة إلى غرفة أخرى وهي تصرخ في انكسار رجاء.. بينما لم يجد عمر أكثر من أن يضع يده على عينيه هروبا من رؤية ما يقع..

كانت يد عمر على الزناد، وساورته نفسه .. وهمّ بأن يتدخل للدفاع عن المرأة..لكنه أدرك أنّ ذلك يعني نهايته، ولم يكن في تلك اللحظة مستعدا للموت..رغم أنه ومثلما تمنى أن تسقط

الطائرة لينجو من تأنيب الضمير، فإنه يتمنى الآن تدخُّل أي عنصر خارجي ينقذ المرأة وينقذه هو من الموقف حتى لو كان ذلك بموته..

كانت استغاثات المرأة والجندي يجرها ، تشق صمت الليل، ولم يكن هناك من منقذ يمكن أن يخلصها من أيدي هؤلاء الذين جاؤوا لينشروا النور في عراق الظلمات..وكان لا بد لشيء ما أن يحدث..

لم يكن من الممكن لكاتب الرواية أن يكون على حياد وهو يرى ما يحدث..ولعله ليس من شأن الراوي أن يدخل معترك الأحداث في روايته ليتحول من قاص إلى شخصية في الرواية..لكن ولأوّل مرة ربما يحدث أن يدخل الكاتب إلى المسرح ليفتكّ لنفسه دورا يفرض نفسه..وقد تذكّر في تلك اللحظة رواية المتجول للكاتب الهولندي "أدريان فان ديس"، وكيف أنّ "مولدر" بطل تلك الرواية كان لا يجرؤ على النظر في عيني كلبه لإحساسه بتأنيب الكلب له.. لقد وضع البطل على رأس الكلب غطاءً، لكن الكلب ألقى عن عينيه الغطاء ، وأحسّ مولدر بعتاب عيني كلبه له، وسأل الكلبَ: "ماذ تريد مني ؟"، وأحسّ أن عيني الكلب تجيبانه بعتاب نظرات حادة

قائلتين : " تَرى إنسانا يموت مُداسا وأنت منشغل بثنية في سروالك؟! تعطي مالا للمتسولين لكنك لا تجرؤ على مصافحتهم؟! تتأنق للآخرين لكنك لا تترك أحدا يقترب منك؟! تسخر من السكارى وأنت تشرب زجاجتيْ نبيذ..؟!"

لم تكن صنعة الأدب كافية لإقناع صاحب الرواية بالحياد، لذلك قرّر أن يشطب شخصية الجندي الأمريكي وأن يزيلها من الرواية.. قد يكون ذلك بالنسبة للنقاد خروجا عن المألوف في عالم الرواية ..وقد يعتبر نوعا من الإرهاب الذي يزجّ بعربي مسلم من جنسية غير عراقية إلى أن يتسلل إلى العراق ويقتل بطريقة ما جنديا أمريكيا.. لكن ذلك ما حدث بالضبط..

وقد خرج الجنود الأمريكيون من المنزل بعد تلك العملية مذعورين يحملون جثة قتيلهم، وفي الشاحنة متجهين إلى القاعدة كان عمر يفكّر في مصير إنسان يجيء من بعيد، فقط ليقتل إنسانا، أو ليموت هو ..

وفُتحت البوابة ودلفت الشاحنة إلى الداخل وهي تحمل رائحة الموت والخوف..

لم يجد عمر صعوبة في إقناع والدته بأمر دعوة ليلى وصاحبتيها للعشاء..ولم تجد السيدة جمانة هي الأخرى صعوبة في شرح الأمر لزوجها وابنتها رقية.. لذلك كانت الأسرة بكاملها مندمجة في الإعداد لعشاء ذلك المساء..

وضعت رقية شمعة ملوّنة أخيرة على طاولة الأكل لتضفي بذلك آخر لمسة تعتقد أنها من واجبات الاحتفاء بالضيفات..ولم تكد تخرج من الغرفة الواسعة حتى لمحت سيارة أبيها تتمدد بطولها باتجاه الداخل ..

كانت جمانة قد ذهبت بصحبة زوجها لإحضار الفتيات الثلاث

اللائي لم يستطعن إخفاء دهشة الإعجاب في عيونهن وهنّ يدخلن الحديقة المحيطة بالبيت الواسع.. وسرقت هذه نظرة سريعة إلى تلك ، وهن يتواطأن بنظراتهن تلك على انطباع واحد يدل على روعة المكان وجمال تنسيقه ..

- أهلا بكنّ .. قال السيد صالح والد عمر وهو يترجل من سيارته.. بينما هرعت رقية لفتح الباب والخروج للترحيب بالقادمات ..

كانت الفسحة المسقوفة المؤدية إلى البيت تغري بالجلوس.. ولعل البنات قد رغبن بذلك لتأمّل هذا الجوّ المسائي الذي يتوسط العصر والمغرب حيث تميل الشمس إلى اصفرار ذهبي ، وتتراقص العصافير فوق الأغصان مبهرة سامعيها بآخر ترانيمها لذلك اليوم..

لكن السيدة جمانة وابنتها رأتا أن من واجب الضيافة الدخول إلى البيت، ولا بأس بالخروج إلى الفسحة بعد ذلك..

لم يكن عمر يعرف ما الذي يجب أن يفعله بالضبط .. يخرج للترحيب بالضيفات ؟ أم يحتجب عنهن لغاية الجلوس إلى طاولة الطعام ؟

ولم يكن ما بليلى من الأفكار أقل مما عند عمر، لكنها كانت رغم كل أفكارها سعيدة لدرجة أنها أحسّت أنها في بيتها المستقبلي ..

بعد صلاة المغرب اجتمع الموجودون على المأدبة الفاخرة..ووجدت الفتيات أنفسهن أمام أكلات وأطباق لم يتذوقنها من قبل..

ولم يخل الجوّ من النكتة ، خاصة وأن الفلسطينية سناء لم تكن مستعدة للمغامرة دون أن تعرف تفاصيل كل طبق واسمه ومكوناته، لذلك وجدت رقية شقيقة عمر نفسها تتحول إلى ما هو قريب من عمل المرشدة السياحية ، ترافق سناء وصاحبتيها في جولة سريعة للتعرف على معالم المأدبة..

تحدّث السيد صالح عن أوّل رحلة له إلى اليابان، حيث عمل سفيرا لبلده، وكيف أنه عانى كثيرا مع أعواد الأكل التي يسميها اليابانيون "هاشي"..كما عانى من أنواع الأكل نفسه..

قالت السيدة جمانة:

- كان ذلك أوّل زواجنا .. ولم يكن عمر قد وُلد آنذاك.. وللعلم فقد وُلد عمر في اليابان بعد ذلك..

قالت رقية في خجل يكاد يخفي صوتها :

- رغم أنّ عيونه ليست ضيقة من أطرافها ...

ليرد عليها أخوها :

- ياباني تقليدا ، وليس أصليا..

وضحك الجميع..

قالت عائشة العراقية وهي توجه سؤالها للسيدة جمانة :

- خالة.. هل طعام اليابانيين طيب؟

ردت السيدة جمانة : المسألة مسألة ذوق ، والمثل يقول : "لولا الأذواق لما نفق كل ما في الأسواق".. بالنسبة لهم أكلهم كله طيب..لكن أنا أعجبت كثيرا ببعضه ولم يعجبني البعض الآخر.. عندهم طبق يسمى السوشي ، من المعكرونة .. طبق جيد..

أضاف السيد صالح :

- ربما يكون من أشهر الأطباق في تلك المنطقة الآسيوية طبق الرامن ، وهو طبق من أعشاب البحر والكابوريا والأرز وعجين الصويا.. وطبعا فما يدخل فيه لحم الخنزير من طعامهم يمكن استبداله بلحم الدجاج أو الغنم أو غيره..

وتدخلت سناء لتخرج عن كل الموضوع وتسأل السيد صالح:

- عماه.. ما هو الكافيار؟

قالت ذلك ببساطة ساذجة ،أو بسذاجة بسيطة..

كان السيد صالح حينها يحاول أن يعيد الشمعة التي أسقطها من شمعدانها وهو يأخذ كوب الماء.. وضحك لسؤال سناء هو يقول:

- الظاهر أن طموحك كبير يا ابنتي..

قالت سناء وكأنها تستدرك:

- أسأل فقط.. وعلى الأقل إذا لم يكتب لنا الله أن نتشرف بتذوقه نكون على الأقل قد أخذنا عنه فكرة.. هناك مسجد في تركيا يسمونه "كأنني أكلت" ، بناه إنسان صالح ، يشتهي الفاكهة أو اللحم فيسأل عن ثمنه، ثم يضع ذلك الثمن في صندوق وهو يقول: "كأنني أكلت"، وبعد سنوات وهو يحرم نفسه مما تشتهيه نفسه ،اجتمع له في الصندوق ما بنى به ذلك المسجد الذي يسميه الناس اليوم " صانكي يدم" ،يعني بالعربية: كأنني أكلت.. ونحن نسأل عن الكافيار، وكأننا أكلنا والحمد لله.

كانت عائشة قد التفتت في نظرة سريعة نحو ليلى، وحين التقت أعينهما ابتسمت ليلى وانفجرت الأخرى ضاحكة..

قال السيد صالح وهو يحاول حبس ضحكاته : الكافيار ببساطة هو البطارخ ، يعني بيض السمك المسمى بالحفش، يضاف إليه الملح..

قال عمر: لكن ، ما سبب غلاء أسعاره يا أبت ؟

كانت لفظة أبت قد لفتت انتباه ليلى التي بدت معجبة بكل تفاصيل حياة العائلة المثقفة التي يسودها الاحترام والمحبة وتظللها الأخلاق العالية.

قال الوالد: السبب هو أن هذا النوع من الأسماك لا يوجد إلا في مناطق قليلة، أهمها عالميا الأجزاء الشمالية من بحر قزوين عند مصب نهر الفولغا.. لذلك لا تنتج الكافيار الحقيقي إلا ثلاث دول في العالم، وهي روسيا وإيران ورومانيا..

قالت عائشة وقد استلذت طعم طبق الكسكس الذي كانت قد تذوقته لعدة مرات قبل هذا:

- لا أظن أن الكافيار أطيب من الكسكس..

كان الوقت يمرّ سريعا ، بينما الحديث يأخذ تشعباته في عالم

الطهي وأنواع الأكل ما خفّف على الضيفات جوّ التكلّف الثقيل .. وقالت السيدة جمانة :

- طبق الكسكس هو الأكثر شعبية في دول المغرب العربي ، هنا عندنا في الجزائر، وفي تونس والمغرب وليبيا..
- قال السيد صالح مستدركا : في ليبيا قد لا يكون الكسكس سيّد الأكلات الشعبية، فهناك أكلة ربما تكون أشهر منه إن لم تكن مثله، وهي أكلة "البازين"..

قالت رقية وهي تحاول أن تجمع بمنديل ورقيّ الرمادَ المتساقط من عود البخور المحترق :

- ليلى، ماهي الأكلة الأكثر شعبية عندكم؟
- وخطفت سناء الكلام وهي تقول :
- البطاطا المقلية طبعا..

ووسط الضحك قالت رقية وهي تحاول ضبط سؤالها أكثر :

- لا أقصد عندكم في شقتكم هنا، لكن أقصد في العراق...؟
- قالت ليلى في ابتسامة شفافة وهي تغمر سائلتها بنظرات دافئة حانية :
- أظن أنّها أكلة "البرياني"..

قالت السيدة جمانة :

- وفي فلسطين أي الأكلات أكثر شعبية يا سناء؟ ثم استدركت تقول : غير البطاطا المقلية طبعا.

ردت سناء وهي تطرد عنها الضحك كما يفعل أحدهم وهو يحاول التخلص من ذبابة :

- المسخّن برأيي هي الأكلة الشعبية الأولى في فلسطين.. بينما في الأردن أكلة المنسف.

قالت رقية : حسب المسلسلات الأكلة الأشهر في سورية ولبنان هي الكبة ، بينما في مصر الكشري.

قال أبوها : صحيح ، والكبة أنواع ،المقلية والمشوية والنيئة واللبنية..

- قالت عائشة : والدتي من البحرين ، وفي البحرين وبعض الدول الأخرى كقطر والإمارات عندهم الهريس ، بينما في السعودية لا أكلة تعلو على أكلة الكبسة...

قالت السيدة جمانة : لقد أصبح العالم قرية واحدة الآن ، وبدأت هذه المميزات تسقط ، اليوم هناك مطبخ عالمي موحد ، والناس أينما كانوا يأخذون أطباقهم عن القنوات الفضائية

والأنترنت.. العالم أصبح قرية واحدة..

وهو يمسح شفتيه بمنديل معطّر، قال السيد صالح:

العالم قرية واحدة في الاتصال وليس في التواصل، يمكن لأي إنسان أن يدخل عبر الأنترنت إلى أي بلد أو مجتمع، ويمكن له أن يتحدث بسهولة إلى شخص في أبعد الأماكن بالنص والصوت والصورة، لكن التواصل غير ذلك، فالعالم أصبح أكثر صعوبة وتعقيدا في هذا المجال، وقد زادت شروط التأشيرات وطرق التفتيش في الموانئ والمطارات ... ومن بلد عربي إلى بلد آخر يرى المرء من الويلات ما يجعله يندم على اليوم الذي قرر فيه السفر..

كان الجميع يستمعون إلى السيد صالح وهو يشرح هذا التناقض الصارخ في التطور الذي لا يعني بالضرورة التقدم، وحين انفض الجمع عن الطاولة لشرب القهوة والشاي في استراحة جميلة معدة لذلك في سطح البناء، كان ليل قسنطينة يستعد ليبهر أنظار المتأملين لجمال المدينة آنذاك...لكنّ الجلسة لم تطل كثيرا، فقد خرج السيد صالح لصلاة العشاء في المسجد، بينما أخذت رقية بيد سناء تجرها إلى غرفتها وهما تتهامسان.. بينما

انتحت السيدة بعائشة ناحية تحدثها عن جمال قسنطينة وهما تطلان عليها وقد تلألأت أنوارها وانبعثت رائحة التاريخ تعبق في أرجائها..

ولعل عمر وجدها فرصة لينضم إلى ليلى التي كانت تقف في جهة أخرى من ذلك السطح، تتأمل الموصل في قسنطينة، وتقتل الغربة بالخيال...

برزخ

لقسنطينة حظها من التاريخ ومن الجغرافيا، ولعمر بمدينته تلك علاقة تشوبها الدهشة والرهبة، ويقترب معنى إحساسها من الشعور الذي يداخل المرء وهو يتأمل البحر... إنه حب مشوب بالخوف الحذِر .. وأحيانا تكون اللذة وليدة الألم، وهو ما قد سمعه عمر من أبيه أكثر من مرة.. "يا ولدي إنّ الناس يستمتعون بقرون الفلفل الحاد بقدر ألم لذعاته" .. ولقسنطينة في شاهق مرتفعاتها وسحيق منخفضاتها ما تُحبس فيه الأنفاس ..

لذلك لم يكن عمر يعلم جيدا، هل يحب قسنطينة أكثر؟ أم يخافها أشدّ..؟ لكنه لم يحس يوما أنه معنيّ بالإجابة على هذا السؤال، لأن قسنطينة لن تكون هي نفسها، إلا بهذا التداخل

المنسجم بين الجمال والرهبة، والأبيض الأسود...

كانت السيدة جمانة على سطح منزلها لا تكف عن الهمس لعائشة بكلام عن ذكرياتها في هذه المدينة التي يرتبط ماضيها عندها دائما بوالدها الذي كان من تلامذة الشيخ ابن باديس رحمه الله، مؤكدة أن أباها كان مع ابن باديس في السوق حين تهجّم عليه مجموعة من الصوفية أصحاب الطرق الموالين للاستعمار الفرنسي، وأنّ والدها قد أصيب وهو يحاول الدفاع عن الشيخ... ولعلها كانت تشير بيدها أحيانا إلى مكان ما في المدينة مدللة عليه بضوء قوي أو خافت أو مجموعة أضواء ، إذ لم يكن يبدُ من المدينة إلا خيالات تلبس الضوء...

أما عمر الذي انضم إلى ليلى في جهة أخرى من السطح الذي تتواجد عليه أمه وعائشة، فلعله كان له رأيه الخاص في أن ليل قسنطينة لا يمكن أن يكتمل جمالا إلا بالشعر، لذلك همس بمقاطع من آخر قصيدة كتبها محمود درويش ووُجدت في بيته في عمّان بعد موته.. كان عنوانها : "لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي"، وقد أخذ عمر عن أبيه وأمه حب الشعر..

كانت الكلمات تذوب مثل نسمات هذا الليل الربيعي في أنوار

قسنطينة وهالة الضوء التي تتوجها :
" ليس المكان هو الفخ...
مقهى صغير على طرف الشارعِ
الشارعِ الواسع
الشارع المتسارع مثل القطارات
تنقل سكانها من مكان لآخر...
مقهى صغير على طرف الشارع
الشارع الواسع
الأسطوانة لا تتوقف- قالت له
قال : بعد دقائق نخرج من ركننا
إلى الشارع الواسع المتسارع
مثل القطارات ،
ثم يجيء غريبان ، مثلي ومثلك ،
قد يكملان الحديثَ عن الفنّ ،
عن شهواتِ بيكاسو ودالي
وأوجاعِ فان غوغ والآخرين...
وعمّا سيبقى من الحب بعد الإجازة ،

قد يسألان: أفي وُسْع ذاكرةٍ
أن تعيد إلى جسدٍ شحنةَ الكهرباء؟
وهل نستطيع استعادةَ إحساسنا
بالرطوبة والملح في أوَّل البحر
بعد الرجوع من الصيف؟"...

ولم تكن ألفاظ الغربة لتخطئ أحاسيس ليلى ، كما لم يكن من الممكن أن يمر لفظ الإجازة في القصيدة دون أن يعيد فتح صندوق الأسئلة والاحتمالات في خلجات عمر...

وساد صمت جميل تعلقت الأنظار فيه بالمدينة الناشرة شعرها للاغتسال في بركة الضوء والظلام في تلك الساعة من الليل...

كانا سعيدين .. وكان الفتى مأخوذا بأحاسيسه..

فهاهي ذي .. امرأة من الموصل الحدباء، أُمّ الربيعين، القائمة على أنقاض نينوى الآشورية بلدة النبي يونس عليه السلام، امرأة من أحفاد سرجون الأكدي ،ونبوخذ نصر، وحمورابي، وأبي تمام الشاعر، وربعي بن الأفكل و عتبة بن فرقد...

كان لا يعرف من أين يبدأ معها الكلام .. لكن الكلام كان يعرف من أين وكيف يبدأ استلال خيط السر الرفيع من بين شفتيه...

قالت :

- أتعرف لماذا اخترت قسنطينة ؟ .. لأنها أقرب في مظهرها وتضاريسها إلى الموصل، فهي حدباء مثلها، تضع رِجلا على مرتفع شاهق وأخرى في منخفض سحيق.. ثم أنها أمّ الجسور مثلما أنّ الموصل أمّ الجسور أيضا.. قسنطينة تمتص بعض غربتي وتقترب بي من حافة الوطن.. لقد كانوا يقولون: إن الغريب إذا أقام في الموصل سنة تبيّنَ في بدنه فَضلُ قوّة، وإن أقام في بغداد سنة تبيَّنَ في عقله زيادة، وإن أقام في الأهواز سنة تبين في بدنه وعقله نقص..

وحينما كنا صغارا كان أبي وهو أستاذ جامعي يقول لنا أنّ ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان يقول عن مدينتنا: "محطّ رحال الركبان، ومنها يقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق، ومفتاح خُراسان، ومنها يقصد إلى أذربيجان، وكثيراً ما سمعت أن بلدان الدنيا العِظام ثلاثة: نيسابور لأنها باب الشرق، ودمشق لأنها باب الغرب، والموصل لأن القاصد إلى الجهتين قلَّ ما لا يمرّ بها".

آه كم أحببتها وكم أشتاق إليها.. رغم أنها لا تفارقني..!

كان عمر يستمع إليها بشغف ، مأخوذا بلهجتها العراقية المحببة وبثقافتها الغزيرة، ولا عجب، فهي ابنة العراق حيث التاريخ

والعراقة والثقافة ....بلد الآشوريين قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة.. عراق الأكديين والبابليين والآراميين ..البلد الذي حوّل الصوت إلى نقوش وعلّم العالم كيف يكتب بيده ما ينطق لسانه وما تسمع أذنه..عراق روائع الخط المسماري..

واسترسلت تقول:

- منذ ثلاثة قرون تقريبا حاول قائد فارسي اسمه نادر شاه الاستيلاء على الموصل ، يحكي لنا كبار السنّ من أهلنا في رواية يتوارثونها جيلا عن جيل أنّ الموصليين اقسموا على قتل جميع نسائهم إذا استطاع الفُرس فعلا الاستيلاء على المدينة.. ولعل عمر أراد أن يخفف من قتامة المشهد حينذاك ، فقال بجملة تحمل نكهة النكتة:

- لو ركبوا رؤوسهم وفعلوها لما كُنتِ أنت موجودة .. أجدادك هؤلاء ألا يفكّرون؟ ألا يعلمون أنهم بفعلهم هذا يحرمونني من ألطف نسمة؟

قالت ، وقد كانت تتمتع بحضور بديهة كالبرق:

- هذا لتعلم أنّكَ تلعب في ميدان أناس لا يرحمون..

وابتسم هو ، أما هيّ فقد مدت يدها بمنديلها لتمسح دمعها

ولتحاول استخراج بسمة خفيفة مضمّخة بالدمع والكحل من بين رماد المواجع..

ولعلها أرادت تكبير الخريطة أكثر لتظهر تفاصيلها ، ولتعبر من عموم صورة الموصل إلى شارع يضم بيت أهلها.. وقد كانت بحاجة إلى أن يصبر عليها لتحلق عبر أجنحة الخيال، لتقترب من جدران بيت بعيد لم تدق بابه ولم تلمس جدرانه منذ أن أبحر بها قارب البعد والاغتراب..

قالت:

- شارعنا يسمى شارع الفاروق ، يمتد من شمال المدينة إلى جنوبها في الساحل الأيمن.. بيتنا هناك.. تنهدت .. ثم أردفت : والديّ وإخوتي يعيشون هناك.. في الطرف الشمالي للموصل غابة جميلة تسمى الحدباء، تطل على نهر دجلة ... كان أبي يأخذنا إليها في أيام الجُمع .. تقطّعَ صوتها بحنان جارف، ومدت أصابعها الخمسة نحو صدرها ، في إشارة إلى أعماقها وهي تحاول - وقد تلعثمت حروفها وارتبكت معانيها- أن تشرح له ما الذي يعنيه دجلة النهر بالنسبة لها :

- دجلة..دجلة ...هذه قصة لا تنتهي ..قصة حياتي وموتي .. كنت

دائما أحسّ أنّ موتتي ستكون في دجلة .. تماما كما أن ولادتي كانت قريبا منه..

- قال: تموتين في دجلة لأنها جزء من حياتك..موتنا جزء من حياتنا .. يقول أبي دائما أنّ كلا منا يقتله في الغالب ما صنعه.. فصانع الديناميت يموت بها.. وملاعب الأُسُود سينتهي بمخالبها وأنيابها يوما .. كما يموت المبارز عادة بالسيف ويموت مروّض الجياد عادة تحت سنابكها .. ولقد مات الجاحظ تحت الكتب..بينما مات المتنبي بقصيدة..

قالت:

- منطق عجيب هذا الذي تقول..لكنه جميل..

قال:

عجيب لكنه قريب جدا من الصواب.. للموت علاقة بالحياة .. والناس يموتون عادة بشيء غلب على حياتهم.. الفيلسوف الكبير أرسطو عاش سنوات قرب البحر يحاول تفسير سبب تغيّر التيارات البحرية .. وحينما يئس من الوصول إلى جواب ألقى بنفسه في ذلك البحر.. هل ترين أن موته في الصحراء كان أقرب إلى المنطق من موته في البحر؟

وأضاف عمر وقد أدركت لتوّها أنّه يمتلك رصيدا ثقافيا مبهرا..:

- أبيبوس تاريخيا هو أول من ألف كتاباً عن الطهي، وكان منطقيا أن يموت في مجاله هذا .. لقد استدرجه بعض أصدقائه إلى أن يقيم لهم وليمة ضخمة ، وفعل ذلك فعلا..لكنه بعد انصرافهم اكتشف أنّ الأموال التي بقيت معه لا تكفيه لشهر واحد، لذلك جلس يأكل من ذلك الطعام حتى مات.

و الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون كان يحشو الحيوانات الميتة بالجليد، لكي

يعرف كم تبقى من الوقت دون أن تتعفن .. وكانت نهايته أن يموت متجمدا بفعل ذلك الجليد...

موليير كان يمثل دورا في إحدى مسرحياته وهي مسرحية " مريض الوهم"، كان الدور يقتضي منه أن يتظاهر بالمرض ، ففَعل وظل يسعل وهو يتظاهر بأنه ينزف.. وعندما أسدلت الستارة كان الموت قد أسدل على حياته ستارة النهاية أيضا.

الأديب الأمريكي هوثورن كان يتشاءم طول حياته من الرقم ٦٤ فكان يحذفه من كل كتبه ومذكراته ويكتب بدله ٦٣ مكرر.. و مات بعد ذلك سنة ١٨٦٤ فكتبوا على قبره : توفي سنة ١٨٦٣ مكرر.

ومثله الكاتب شلومو علينحيم الذي كان يخاف من رقم ١٣ ، وكان يكتب بدله ١٢ مكرر.. مات في نيويورك يوم 13 مايو سنة ١٩١٦.. وكتبوا على قبره هو الآخر : توفي يوم ١٢ مكرر مايو ١٩١٦.

أما المؤلف أرنست تولر الذي عاش مغرما بالورق والكتب ، فقد ألقى عليه جنود أدولف هتلر القبض سنة ١٩٣٣ ، وكان حكم هتلر فيه أن يبتلع كتابه الذي كتبه ضد النازية.. وهو كتاب من ٤٧٠ صفحة .. وقد ظل تولر يأكل كتابه ورقة ورقة إلى أن مات.

عندنا يقولون : البلاء موكول بالمنطق .. وأنا أقول أنّ موت الإنسان من حياته..لحظة من لحظات حياته، صحيح أن ترتيبها يأتي أخيرا، لكنها تأتي منسجمة مع أخواتها من اللحظات التي تسبقها طوال سنوات من حياة الشخص .. وأنتِ ستموتين في الغالب قريبا من دجلة، لا لأنك فقط وُلدتِ قريبا من دجلة، ولكن لأنك عشت هناك.. الهندي يموت غالبا في الهند، ونادرا أو شذوذا أن يموت كنغر مثلا في لبنان.. لذلك قالوا :"يموت الزمار وأصابعه تتلاعب".. من عاش وأصابعه على ثقوب الناي لا يمكن أن تبرد أصابعه على غير ثقوب الناي.. تفهمينني؟

هي المرة الأولى التي يتحدث فيها إليها، لذلك لم يكن بالإمكان القول أنها المرة الأولى التي تدرك فيها مهارته في الغوص في تفاسير الأشياء.. كانت مذهولة وهي تستمع إليه.. بينما كان هو حزينا وهو يستمع إليها.. ولم تجد سوى أن تسأله:

- هل رأيت صورة لدجلة؟

لم يقل كلمة .. فقط حرّك رأسة يمنة ويسرة بالنفي.. وأضافت:

- هناك شاعر موصلي قديم يسمى السريّ الرفاء ، له قصيدة جميلة لا أظن أن هناك موصليا تغرّب ولم يتمتم بها في أمسيات الشتاء حين يختلط المطر بالدمع على وجوه الغرباء..

كانت دموعها تنهمر وهي تقول ذلك، وأضافت وهي تجفف الدمع أسفل عينيها بلطف:

- أما أنا فأعلّقها في لوحة على جدار غرفتي هنا..

ولعله استحيى في تلك اللحظة من دموعها، لعله احترم كلامها المتهدج بالحزن فلم ينطق ولم يسألها عن تلك القصيدة، وكانت أجزاء كثيرة منه تميل إلى سؤالها عنها، واستمرت هي تحكي وكأنها لأول مرة في غربتها تلك تجد من تلقي أحمالها إلى الأرض على مسمع منه..قالت:

تقول القصيدة :

"سقى رُبى الموصل الحدباء من بلدٍ
جَودٌ منَ الْمُزنِ يحكي جُودَ أهليها
أَأندُبُ العيش فيه أمْ أنوحُ على
أيامها أمْ أُعزى في لياليها
أرضٌ يحنُّ إليها مَنْ يُفارقُها
ويحمدُ العيشَ فيها مَن يُدانيها"..

تنهدت وتنهّد.. .. كان يحس قلبها حزينا..ولأنه يحمل قلبها في قلبه ، فقد كان يحس قلبه أكثر حزنا.... وضعت وجهها بين يديها ، وأجهشت بالبكاء..بينما امتدت يده إلى جبينه تفركه .. ولعل شيئا مالحا تحدّر من عينيه.. فقد كانت هي في تلك اللحظة تبكي نفسها بمدينتها البعيدة التي تشتاق إليها ، بينما كان هو يبكيها هي بقلب مدينته الحزينة عليها..

وكل يبكي ليلاه..

مضت الأيام بسرعة... وهاهو قد مر شهر منذ أن سافرت ليلى إلى العراق .كم يشتاق إليها!... لقد اتفقا على كل شيء، ووعدها بأن تلتقي عائلته وعائلتها في الأردن أو سوريا لإتمام مراسيم الزواج، ومن هناك ترجع هي معه إلى الجزائر.

صحيح أنه قلقٌ بشأن سفرها إلى العراق، لكن حلمه لا يمكن أن يتحقق دون سفرها ذاك ، ثم أن من حقها وهي مقبلة على حياة تعيشها معه في بلده أن تمضي بعض الوقت في العراق، لتضمه إلى صدرها وتكحل به عينيها وتخبئ من دفئه في أضلاعها ما يكفيها لبرد الغربة وفصول البعد ...

لكنّ أسوأ ما يقض مضجعه الآن هو أنها لم تكلمه منذ أسبوع، ولم تكن تلك عادتها، فقد كانت تمطره برسائل الهاتف على عادة وصايا الأطباء لمرضاهم : " واحدة بعد الفطور، وواحدة بعد الغداء، والثالثة بعد العشاء.." ..

منذ أسبوع وهاتفها مغلق ، والأفكار السوداء تعشش بين جوانح الفتى...

ولم يكن عمر يفكر في ذلك المساء إلا فيما كان يفكر فيه طوال أسبوع ، حين رن هاتفه الجوال.. وحين لم يكن الرقم مرئيا على شاشة الهاتف فقد مالت أجزاء كثيرة من عمر إلى أن المكالمة عراقية... كانت ليلى مشتركة في شركة آسياسيل للهواتف ، وقد راج بين العراقيين أن آسياسيل تسرب الكثير من أسرار مكالمات واتصالات ورسائل وأماكن تواجد زبائنها وعملائها لجهات أمنية، وهو ما تسبب في اعتقال الكثير منهم أو تصفيتهم..

كانت يد عمر مضطربة وهو يضغط بقوة على زر الرد، ليأتيه الصوت البعيد معجونا بلهجته العراقية :

- السلام عليكم ...
- وعليكم السلام .
- شلونكم؟ شلون الأهل ؟
- من معي من فضلك؟
- أنا حاتم ، شقيق ليلى....

كان ذكر اسمها كافيا لإحراق ما بقي من الاحتمالات البيضاء في جعبة عمر، ولو لم يكن قد أصابها سوء لما كلمه أخوها بدلا عنها...

- أهلا أخي حاتم ..كيف حالكم ؟وكيف الأهل كلهم؟
- الحمد لله ...

ولأنه لا توجد طريقة جيدة لتبليغ الأخبار السيئة، فقد كان على حاتم أن يقول الخبر كما هو ودون مقدمات...:

- أردت أن أخبرك أن ليلى هي التي طلبت مني أن أكلمك..وهي مسجونة منذ أسبوع....و...

لم يسمع عمر بقية ما أوصله الخط من كلام ، فقد أحس بالحرارة تداهم رأسه ، وبغمامة رمادية تغزو عينيه.. ليحتوشه بعد ذلك عالم قريب من عالم الأحلام.. فكيف يمكن لليلى أن تكون معتقلة؟ ذلك يعني اعتقال كل طيور أحلامه.. ولو أن اعتقالها كان في سجن نظام يحترم البشر ولو قليلا ، لكانت الطامة أخف وقعا ، لكنه العراق..العراق بكل شعارات الديمقراطية التي يعرف عمر مثل كل الناس معناها الذي كشفته سراديب وأقبية أبي غريب.. إن ليلى المسجونة ليست فقط مهوى قلبه أو حلم عمره ..إنها فوق ذلك وقبله وبعده هي عرضه وشرفه...

حينما انتهت المكالمة ، كانت الصدمة قد عقدت لسان الفتى وشلت تفكيره ، فلم يعد يعرف ما الذي يجب أن يفعله... ولعل أهم ما كان يجب أن يسأل عنه ولم يفعل ، هو سبب اعتقالها...

في البيت ، في ذلك المساء ، وقد ضرب الحزن بخيمته السوداء على أسرة عمر ، كان والده السيد صالح يجيب السيدة جمانة عن سؤالها حول سبب اعتقال ليلى قائلا :

- الأمر ليس بحاجة إلى سبب، وإلا فماهو السبب في غزو العراق، وفي اعتقال أبنائه أو تشريدهم أو تصفيتهم؟ الأمر لا يحتاج إلى سبب..كذلك هو العراق اليوم للأسف ... وإذا كان بعض أركان النظام اليوم هم من يقف وراء تفجير السفارة العراقية في لبنان وهي العملية التي قُتلت فيها بلقيس زوجة الشاعر نزار قباني، فعن أي عدالة أو احترام للإنسان سنتحدث؟!

كانت عينا عمر قد برقتا بالغضب وتطاير من بؤبؤيهما الشرر ، وكان السيد صالح يدرك في قرارة نفسه أن ابنه وديع ومسالم صحيح، لكنه في هدوئه ذاك يحمل غضب العواصف العاتية...ولعله كان في تلك اللحظة يدرك أن بعض تلك العواصف قد بدأ يهتز ويصطرخ مثل مارد بين جوانح صغيره... ولعله كان خائفا عليه من نفسه ، لذلك قال له:

- ربما لا نملك أن نفعل الكثير، لكننا يجب أن نفكر في حل، فليلى عزيزة على أنفسنا ولا شك أن المسكينة تعيش الآن أسوأ أيام عمرها بكامله...

برزخ

في زنزانة اكتظت بأجسادهن المتعبة، تراصت نساء لم تبق من ملامحهن سوى عيون خائفة مذعورة تدور في محاجرها ، يحركها صوت زنزانة يفتح هناك أو صرخة لمظلومة هنالك...

نساء من كافة الأعمار، اجتثتهن أيدٍ آثمة من دفء الأسر وحنان الآباء، ولم يحملن معهن في قلوبهن إلى هذا المكان المرعب سوى صور أبنائهن الصغار أو أمهاتهن الدامعات...

وقد استمعت ليلى طوال أسبوع ثقيل مؤلم إلى قصصهن التي همسن بها خوفا ... ولم تكن منهن امرأة واحدة قد اقترفت ما يستوجب جزءً من مليون جزء من هذا العذاب الذي تنام على نبضه وتصحو على عويل جراحه في جسمها...

وقد تعرضت حفصة ، وهي فتاة جميلة وابنة فلاح فقير، إلى أشنع ما يمكن أن تتعرض له امرأة عاشت طول سنوات ماضية تحافظ على كنز شرفها ... لقد دمروها...

ولم تعد ليلى وقد استمعت إلى كل تلك القصص بحاجة إلى أن تفتش في ذكرياتها عما يمكن أن يكون قد أوصلها إلى هنا .. فقد بدا لها أن الأمر لا يحتاج إلى تهمة في بلد تدفع فيه شرائح كثيرة من الشعب ثمن انتمائها الديني أو موقفها المكتوم من الاحتلال ...ولعل ذلك ما حدا بها منذ يومين إلى أن تحدّث النسوة في الزنزانة عن رواية "المحاكمة" للروائي التشيكي "فرانز كافكا" ، حيث يستيقظ البطل صباحا فيجد نفسه رهن الاعتقال بتهمة لم تخطر له على بال، بينما يجد مصيره في يد محكمة غامضة لا تسمح له حتى بالدفاع عن نفسه...

وقد همست إحدى النساء المثقفات لليلى أن تكفّ عن الحديث عن الرواية ، لأنّ كافكا ليس له من صورة عند السياسيين غير صورة الروائي الداعي إلى الثورة على الظلم، وهو ما حدا

بالفيلسوف الألماني ثيودور أدورنو للقول: " إن كل من تمرُّ عليه عربات كافكا سيفقد حتما وإلى الأبد سلامه مع العالم".

وقد فهمت ليلى مقصود المرأة ، فابتلعت بقية الحكاية مع ريقها المر، ثم أسندت رأسها إلى الجدار وهي تحملق في أمّ صدام ، امرأة من تكريت.. تجاوزت الستين، مريضة بالسكري والضغط.. لا تكف عيناها عن السيلان، فجيعة بولد وبنت معوقين ،خلّفتهما وراءها دون عائل ولا مُعين ولا خادم .. وقد قتل زوجها تحت التعذيب في أحد طوابق وزارة الداخلية العراقية حيث مكاتب فيلق بدر... وليس لأمّ صدام من تهمة سوى هذه الكنية التي جرّت عليها الكثير من المتاعب..أما تهمتها المباشرة فهي أنها ضبطت يوم عيد الأضحى حيث تم إعدام الرئيس صدام حسين تبكي وتتحسر عليه..ولعلها أثناء التحقيق قد ظنت أن الأمر مهما ذهب بعيدا فلن يصل إلى حد الإعدام، لذلك أجابت المحقق بأنها ليست الوحيدة التي بكت صدام في ذلك اليوم ، وقد بكاه كثير من الناس الذين أحسوا بألم استفزازهم باختيار العيد موعدا للإعدام...وأضافت : يمكن أن

تحققوا مع جميع العرب والمسلمين الذين أعجبوا بشجاعة صدام وحزنوا على موته...

كانت تلك الكلمات كافية لتوصل المرأة إلى حبل المشنقة التي أصبحت تنتظره أكثر مع اقتراب أي عيد للأضحى..

كانت نظرات ليلى تجول فوق القسمات المتعبة الذابلة لتلك المرأة.. تمسّح الدموع التي حفرت أخاديدها على وجهها ...واحترق قلبها لحالها إذ لم ترحم مرضها ولا كبرها قسوة جنود الديمقراطية والحرية المغلفة بالحس الطائفي الأسود، الذي يستحضر أحقاد مئات السنوات ، وهو يمعن أذى في أناس فقراء متعبين لا ذنب لهم ولا جريمة...

أما ليلى فلم تنل من نعمة العدالة الجديدة حينذاك ، سوى حصة من التعذيب ، تركت على معاصمها وفي جبهتها جروحا غائرة ..وكانت تحس أنها دخلت في سرداب لا مخرج لها منه، لأنه بالأصل لا مخرج له... وكم تمنت في تلك اللحظة أن تلقي بثقل حزنها وانهيارها على صدر أمها... وانفجرت بالبكاء.

كان ضابط المارينز عمر قد وصل إلى قمة الامتعاض مما يفعله الجنود الأمريكيون والعراقيون .. ولم يظن يوما أن بإمكان جندي أن يتجاوز كل حدود الانضباط والأخلاق ليقترف في حق عُزّل مستضعفين أسوأ ما يمكن أن يتخيله العقل..

كان في قرارة نفسه يحتقر الجنود العراقيين ، وكان يمكن أن يتصوّر السبب أو بالأحرى اللاسبب الذي يجعل جنديا أمريكيا يركب مراكب اللامبالاة ويمعن في إيذاء أناس ليسوا أهله أو تدمير بلد ليس بلده، لكنه لم يكن يفهم لما يفعل جندي أو شرطي عراقي ذلك؟

كان منظر هؤلاء مقرفا وهم يحاولون التشبه بجنود المارينز الغرباء في الإمعان في تجاوز كل اعتبارات الأخلاق أو حتى الإنسانية.

ولم يكن بإمكانه أن يتدخل لثني هؤلاء أو أولئك أو ردهم عما يقترفون في كل مداهمة أو عملية.. لذلك فقد أحس أن قلبه قد امتلأ حقدا ومقتا، ولم يكن له سوى أن يوكئ على ذلك، مثلما يُوكَأ فمُ القربة لئلا يسيل ما في جوفها من الماء...

كان قد فكر في كل ما يمكن لجندي محبط ماقت أن يفكر فيه... فكر في الانتحار ، وفي أن ينحر غيره، واستحضر عمليات عديدة قام بها مجندون رافضون لصورة ومهام الجندية في الجيش الأمريكي

الذي ينتمون إليه.. من الجندي الذي قتل عددا من زملائه في حرب تحرير الكويت، إلى نضال حسن...وكان يقول لنفسه أنه إذا قرر فعلا فعل شيء من ذلك فلا بد أن يكون شيئا كبيرا جدا... وكبرت في رأسه الفكرة وازداد حجمها مع الأيام، دون أن يكون قد عرف ما هي بالضبط، ولا ما هي تفاصيلها ، لكنه كان كثيرا ما يردد مقولة قرأها لفرانسيس بيكون قوامها: " إذا لم تحترم الدولة قواعد العدالة ، فإن العدالة لن تحترم قواعد الدولة"...

برزخ

كانت ذبالة الشمعة تتمايل لتتلاعب معها الظلال المرتسمة على جدران الغرفة.. أمسية أخرى من أمسيات الشرود ..وقد تركت الأيـام الماضـية علـى وجـه الفتـى عمـر مـا يشـرح حالـه دون مقال..لقد كان يعاني ، وأكثر معاناته من سؤال كبير لا يجد لـه جوابا..

كيف يمكن أن يصل إلى العراق؟

لقد حاول الحصول على إجابة من الشبكة العالمية، لكنه لم يصل إلى ما يقر قراره وينهي تمزقه...

طرقت رقية الباب، ثم دلفت إلى الداخل دون أن يعيرها اهتماما..كان ممددا على سريره ..عيناه إلى السقف.. تبدو على جانبي وجهه مما يلي الصدغ نتوءات جراء ضغط فكه العلوي بالسفلي...

وضعت رقية كوب العصير البارد، ثم توجهت إلى النافذة فأغلقتها ، دون أن تنبس بابنة شفة، احتراما لصمت شقيقها وحزنه.. وكانت هي ذاتها حزينة على ليلى، صحيح أنها لم ترها غير مرات قليلة بعد دعوة العشاء تلك، لكنّها أحست وكأنها تعرفها منذ سنوات طويلة..

قريبا من باب الغرفة، وقبل أن تخرج منها، ألقت رقية على وجه أخيها الساهم نظرة، فلم تجد فيه غير مساحة للانكسار والحزن، وقد حرّك ذلك بركة الشفقة في أعماقها كما يحرّك حجر ساكن الماء في دوائر تتسع في مطاردة بعضها.. ولم تجد غير تنهيدة عميقة، أطلقتها وسحبت ظلها إلى الخارج وفي عينيها دمعتان ترقرقتا حارتين ثم سالتا بالكحل على خديها.

في اعتصار الألم، لم يكن عمر يجد غير بيتين من الشعر للمجنون قيس بن الملوّح، يحرك بهما شفتيه اليابستين:

" ألا يا حمامات العراق أعنّـني

على شجني وابكين مثل بكائيا

يقولون ليلى بالعراق مريضـة

فيا ليتني كنت الطبيب المُداويا"

كان الليل قد قضى على غبش المغرب واستوى أسْودَ مربادا في ليلة غاب فيها القمر... بينما كانت الشمعة المتقطعة الأنفاس تطلق خيطا رفيعا من الدخان قبل أن تعلن انطفاءها .. وقريبا منها كان الفتى الضائع في خيوط الغزَل ينسج طرقا ودروبا قبل أن ينقضها متأففا.. وأسوأ ما في حياة المرء أن يكون بلا طريق ..فلا هو يتقدم ولا هو يتأخر ،ولا هو يرمي ببصره إلى هدف بعيد في محطة نائية ... وكذلك كان عمر حينذاك.

برزخ

وصـل عمـر إلى العراق..كانـت مغـامرة تفضـي بأحـد طرفيهـا إلى العراق وبالآخر إلى الموت... حين وصل إلى مشارف الموصل وكـان الوقت ليلا ، ذاب عنه كـل العنـت الـذي أرهقـه طـوال الرحلـة ، وأحسّ بدقات قلبه تتسارع كأنها أجنحة تستحث طائرها للتحليـق عاجلا نحو تلك الصبية التي مالت زهرتها الحمراء في جوانح الفتى مُؤْذنة بالذبول..

لا بد من الموصل وإن طال السفر ..وهاهي ذي .. وللموصل وأهلها شوق تختصر الأقدام المتورمة إليه لأُواء الدروب وتعب المسافات... ولئن كانت ليلى قد قاتلت الحنين إلى الموصل بقسنطينة، فإن على عمر الآن أن يقاتل الحنين إلى قسنطينة بالموصل.. لكنه كان يشعر في تلك الساعة وهو يتأمّل الأضواء المتلألئة بين مرتفعات المدينة ومنخفضاتها أنه قد بلغ محط فؤاده .. وبين مدينة تركها هي مسقط رأسه، ومدينة أخرى تستقبله الآن وهي مسقط قلبه، درب يصلح للحياة مرة وللموت ألف مرة، فقد عمل أعداء العراق من الأغراب الذين احتلوه ومن أبنائه الذين ليسوا بلونه ، على فصله عن جسد العروبة والإسلام، ولئن كانت كل الطرق تؤدي إلى روما، فإنه لا طريق يؤدي إلى العراق، كل الخطوط مقطوعة وكل الحدود مسيجة وكل الدروب مزروعة بالخوف والمخاطرة..

كان حاتم شقيق ليلى قد انتظر الفتى القادم على صهوة حبه ونخوته على طريق ترابي مؤد إلى المدينة، وكان مبهورا بشجاعته وصدقه، لذلك لم يكفّ عن الإشادة بما عمل ، مُكْبرا فيه تضحيته ..

لم يكن مع عمر الذي كانت رجلاه تختلف من شدة التعب سوى حقيبة صغيرة ضمّنها بعض لباسه وأغراضه الخاصة وهدية لعائلة

ليلى.. ولم يكن من الصعب أن يكتشف حاتم أنّ رحلة عمر لم تبقِ في كاهله من الجهد ما يحمل تلك الحقيبة، لذلك خطفها من يده حال لقائهما ..

حينما طُرق الباب بلطف ، لم يكن التوقع ليخطئ أمّ حاتم في كون الطارق ليس غير ابنها وضيفهم، لذلك خفّت خطًى إلى الباب تفتحه ، ثم تلقي من خلاله نظرة اطمئنان على الشارع بعد دخول القادمين...

على مائدة العشاء التي بدا أن أمّ ليلى وبناتها قد بذلن مجهودا في إعداد طعامها ، كانت عينا أمّ ليلى تذرف من الماء والملح ما حرّكه وصول هذا القادم من بعيد يطوي الوهاد والنجود ويواجه الخطر ..وقالت لمن سألها من أبنائها ، أنها دموع الفرح بقدوم عمر، كانت تتأمله طوال تلك اللحظات، ولم تخطئ في ملامحه مخايل النعمة ودلائل الثراء، لكن كل ذلك غلّفه من رهق الطريق وغبار السفر وذبول التعب ما هو شبيه بما أصاب جَمال العراق الباهت تحت غبار الحرب ورهجها..

- كيف حالكم يا حبيبي؟

قالتها أمّ ليلى وهي تضمر من محبته ما يتداخل مع محبتها لابنتها

الغائبة..ورد دون أن يرفع جفونا أتعبها السهر وكسّرها الخجل :

- الحمد لله ....

كان سؤال الأمّ وجواب الفتى فاتحة لكلام طويل أصرّ عمر على أن يعرف من خلاله مكان سجن ليلى وبعض التفاصيل عن المدينة... في تلك الليلة أحسّ عمر أنه يعرف هذه العائلة الطيبة من سنوات، غير أنه كان قلقا بشأن أمه التي يعرف أنها تعيش معلّقة على نقطة بين السماء والأرض تنتظر منه رنة هاتف أو سطر رسالة.. لذلك كان همّه أن يُطمئنها بوصوله ... ولم يكن الأمر يحتاج لأكثر من رنة وكلمتين طار لهما قلب السيدة جمانة ...

سرت في الجسد المتعب بعض العافية ، وكعصفور جمّده صقيع الأجواء، وجد عمر نفسه بين عائلة دافئة العش سهلة المعشر، تبحث بنظراتها عن حلم مؤجل..أما أم ليلى فامرأة أحسّها عمر ذليلة منكسرة بعد عز..في زمن عراقي لا يُرحم فيه عزيز قوم ذلّ.. تشبه الموصل في قسمات عربية تنضح من سمرتها تواريخ الأصالة وأحقاب عراقية بامتياز... وكان فيها شيء من ليلى.. لذلك أحسّ عمر أنه قد قضى على نصف الوجع الذي سكن جنبه الأيسر مع نصل طعنة الخبر الذي جاءه عبر الهاتف منذ أيام يخبره بسجن

فتاةٍ رمى في جيبها كل أوراقه...

جمَع عمر صلاة المغرب والعشاء ثم أسلم رأسه لوسادة محشوة بنعاس يغالب الأسئلة وتغالبه ... وحين استيقظ في الفجر كان قد قرر أن يسترشد بحاتم للوصول إلى الدليل الذي أوصله إليه، ليأخذه حسب اتفاقهما إلى مكان آمن يستطيع أن ينفّذ من خلاله ما جاء لأجله..

وكانت عائلة ليلى مصرّة على بقاء عمر عندها، وتعلقت به والدتها خارجا، وألحّ عليه إخوة ليلى وأخواتها ..لكنه ما جاء إلا ليكون حيث يجب أن يكون.. وخرج برفقة حاتم، وبين حاجبيه عقدة من الحزن والغضب ..وغاب الرجلان في وشاح الغبش المُرمّد من تداخل الضوء في الظلمة... وعادت أم ليلى إلى الداخل بعد أن أغلقت الباب وراءهما دون أن تلقي نظرة على الشارع، لكنّ شفتيها كانتا تتوهجان بدعوات صادقة محمومة ...

برزخ

كان فصل الصيف يجود بآخر ما في جعبته من أيام ، تماما مثلما يفعل بحّار يتخفف من حمولة الزورق طمعا في النجاة... وكانت ملامح وجه الخريف تندس رويدا في ثنايا الوجه الصيفي المتلاشي نحو الأفول... ولمساء الموصل ما يحرّكه في النفس على وقع صوت انفجار يرتفع هناك وقامة دخان تتعالى هنالك... والكثير من الكلام حول .. وحول... وحول...

كان خامس أربعة ظلال تجلس تحت أفياء شجرات الجوز العالية في هذا البستان القابع في ضاحية المدينة.

كان للأربعة ما يتجاذبون حوله أطراف الحديث ، وكان له صمت

المتأمل...وكان للطيور سقسقاتها الكثيفة المتداخلة.
لم يكن البستان مترامي الأطراف، لكنه كان كثيف الخضرة متداخل الأغصان، تتعرّش فيه سيقان النباتات التسلقية حول كل ما يجاروها أو يقف في وجهها من الجذوع والجدران والحواجز...
أغمض عينيه وجذب نسمة عراقية مسائية طويلة إلى رئتيه.. أحسّ أنّه يستنشق من الهواء ما يبلسم جراحات حزنه وغربته.
كثيرا ما استنكر السؤال الذي يهز نخلة الغضب داخله :
كيف ساقتك الخطى إلى هذه المدينة البعيدة ؟
يمضغ ورقة المرارة دون عبوس وتبرق عيناه ولا يجيب.
في داخله كان يعتقد أنّ صياغة السؤال خاطئة، أو لعله ليس الشخص الذي يجب أن يُطرح عليه هذا السؤال، حتى وإن كانت صياغته صحيحة...
كان يحس أنّ الموصل أقرب إليه منها إلى الجندي الأمريكي المدجج بالسلاح، والمختفي خلف نظارته السوداء ...
لذلك لم يكن من المنطق سؤاله عن الأقدار التي أتت به تسوقه أمامها أو تجره خلفها إلى هنا ، قبل سؤال جندي البحرية الأمريكية ...

سحب إلى صدره نفَسا آخر أقصر... وعصر جبهته بين إبهامه وأصبعه الوسطى، وعاد إلى أيام خلت ...كان ذلك منذ عشرين سنة ... يمدّ كفّ يده لعصا المعلّم تلهبه على إهماله وعدم حفظه قصيدة :

"بلاد العرب أوطاني..."

ولأنّ بغداد وردت في القصيدة بغير اسمها المعروف (بغداد) فقد اجتهد المعلّم قبل ذلك في بيان أن المقصود ببغدان هو بغداد، وراح بعد ذلك يثرثر بكثير من الكلام الذي لم يكن يعني لأطفال في سنه لم يتجاوزوا التاسعة من أعمارهم شيئا، ولا يهمهم في شيء أن تكون بغداد عاصمة الرشيد، أو عتيقة السبعة آلاف سنة ، أو معلّمة البشر الكتابة...

كل ما كان يهمهم حينها هو ذاك الجورب الذي يملأونه عشبا أو قماشا، ويسمّونه كرة تتقاذفها أقدامهم بعد التحرر من سجن المدرسة وأسئلة المعلّم الذي يحدثهم عن بلاد ومدن تفصلهم عنها آلاف الكيلومترات وحواجز الحدود التي يحرسها ضحاياها ويرسّخها سجناؤها.

لم يكن العراق تعني له شيئا غير فرض يتكئ على صبره ليحفظه

أبيات شعر يتقي بها سخط المعلّم ...

لكنه الآن بلحمه وعظمه هو هو، في العراق بنوره وناره ودخانه.. هو هو... فكيف تحوّلت مدينة من سكنى بيت شعر يحفظه مكرها إلى سكنى قلب جاء من بعيد ملبيا صرختها؟!

- آآآخخخ

كأنه حاول اجتثاث شجرة المرارة داخله والإلقاء بها خارجا عبر زفرته تلك...

لفت انتباه مجاوريه، فقذفه أحدهم بحبة جوز نخِرة ممازحا...

ابتسم له..وللبقية... وحرّك رأسه يمينا وشمالا معلنا استسلامه لذكائهم...لقد كشفوه ... ولم يكن على مثله وهو الرقيق الذي تحركه الكلمة وتعصف به الصورة وتدهشه الفكرة أن يكابر أو ينكر اهتزاز طيور الشوق على أوتار قلبه في مثل تلك المساحات الرهبانية المتفجرة...

كانت رائحة التراب تنبعث من الأرض حين يلامسها الماء متدافعا في الساقية من شجرة إلى شجرة... وللتراب عنده ألف معنى ومعنى جديد ، إضافة إلى المعاني القديمة التي

حشا بها المعلّم جمجمته بقوّة الحديد والنار، رغم أن مدير

المدرسة كان لا يكفّ عن تعليق تعليمات وقرارات (منع ضرب التلاميذ) على الجدران هنا وهناك ...

تلقّف الجوزة التي رماه بها صاحبه اليمني عبد الله... قبل أن يجد نفسه مجبرا على دخول حِمى النقاش الدائر بينهم، والذي غيّبته أفكاره عنه، فلم يدر ما هو ولا حول أي موضوع كان.

- ما رأيك يا عمر؟

- في ماذا ؟

كان الخليجي بدر وعاءً مُلئ تنكيتا ثم أوكِئَ عليه... لذلك كان عمر يدرك أن سؤال بدر له ما هو إلا مصيدة ينصبها له كما هي العادة لاستدراجه إلى موجة من النكت والضحك.

وأجاب بدر:

- في أن نستسلم للقوات الأمريكية ونطلب اللجوء السياسي..؟

أغمض بدر عينيه واسترسل كأنه يريد الإيقاع بعمر في اشتهاء حلم دنيوي غريب:

- يأخذوننا إلى شيكاغو.. يزوّجوننا بشقراوات نستغلهن في تعلّم الإنجليزية ، وطريقة أكل التشيز برغر...

وبعد عشرين سنة ينضمّ أبناؤنا الأمريكيون إلى الجيش الأمريكي.. ونودّعهم.. وتودعهم زوجاتنا الشقراوات اللائي لن يعدن شقراوات ونحن نفكّر جديا في فجيعتهن بالزواج عليهن بأخريات سمراوات، نقتل بسمرتهن تلك الحنينَ إلى ماضينا العربي... ثم تلوّح أيدينا وأيدي زوجاتنا أمهات الأولاد لأولادنا جنود المارينز الراحلين إلى بلاد عربية أو إسلامية أخرى يحررونها وينشرون فيها الديمقراطية ويطهّرونها من أسلحة الدمار الشامل...يا سلام.

ومدّ بدر لام هذه الكلمة الأخيرة، (سلام) لينفجر رفاقه بالضحك... وليتحوّل بعدها إلى اللبناني معتز يستفزه بتقليد بعض الكلمات اللبنانية:

- حبيب ألبي(قلبي) تستسلم معي لقوات المارينز؟

وكان غبش الليل ينزل من السماء تدريجيا، ليلف الموصل في ردائه ،معطيا موعدا آخر لنشاط الميليشيات الليلية المسلحة ومداهمات قوات الاحتلال لبيوت العراقيين بحثا عن مشتبه بهم أو مشتبه بهن ،يُضافون إلى قائمة الشرف العربي الذي جاءت قوات البنتاغون لحفظه في الزنازين وأقبية الصرخات التي لا

معتصم لها.

كانت بوابة البنتاغون حيث توقفت سيارة اللنكولن تطل على الشارع بمئات العدسات الإلكترونية الدقيقة، ونزل أحد الراكبين ليفتح الباب الخلفي الذي نزل منه رجل خمسيني بدا مهيبا وهو يستعرض بطاقته للحرس ثم يدلف إلى الداخل متبوعا بشاب يحمل محفظة سوداء ويتأبط في الجانب الآخر ملفّا تُحرك نسمات الريح الخفيفة أوراقه، فتشتد مبالغة الشاب في الضغط عليه بذراعه لئلا يتناثر...

بعد دقائق كان الرجل الخمسيني يضع الملف الذي كان الشاب يتأبطه خلفه ،على مكتب أمين سرّ وزير الدفاع الأمريكي روبرت جيتس ...

طوال ثلاثة أشهر عملت وكالات وأجهزة استخباراتية عدة على إعداد هذا الملف، وكان من بين هذه الأجهزة، الوكالات الثلاث التابعة لوزارة الدفاع، وهي وكالة الأمن القومي ،ووكالة الاستكشافات المتخصصة في تطوير الاستطلاعات عبر الأقمار الصناعية ،ووكالة التصوير والمسح الجغرافي الموكل إليها مهمة إعداد المعلومات الجغرافية والخرائط والتصميمات المعقدة على أجهزة الحاسب.

كما شاركت وكالة الأمن القومي في إعداد التقرير الذي بدا من طريقة احتفاء أمين سر الوزير به أنه من الحساسية والخطورة بمكان، وقد أكبّ على إعداده باحثون من أكثر العناصر كفاءة، من بينهم زملاء وتلاميذ "لمايكل هيدين" شخصيا، وكان هؤلاء كثيرا ما يفتخرون بكونهم من ألمع من عمل مع هيدين الذي أصبح مديرا للاستخبارات المركزية في مايو ٢٠٠٦ .

كانت الإجراءات المشددة في مقر الأمن القومي بفورت ميد بولاية ميريلاند حيث فئة استخبارات الإنذار توحي فعلا مع أهمية البحث الذي تقوم هذه المجموعة باستكماله في أسرع وقت وبتفصيل دقيق حسب طلب خاص من وزير الدفاع.

لـذلك كـان مـدير الخليـة يؤكـد لزملائـه أن الموضـوع (مـن أخطـر الملفـات) الـتي تقـوم بدراسـة أحـد أكـبر التحـديات الـتي تواجـه الولايات المتحدة.

برزخ

كان ديف جيروارد نائب رئيس شركة غوغل والمدير العام لها يرشّ بعض الماء من قارورة بخاخة على بعض نباتات الزينة في مكتبه، وكان قد وصل للتو، ليبدأ طقوسه الاعتيادية ومنها عادته هذه مع نباتاته وزهوره التي كان يفتخر بأنها من أندر المجموعات في أمريكا كلها، وأنه جلبها معه من أسفاره الكثيرة إلى أنحاء العالم خلال سنوات طويلة ماضية.

لم تكن تلك الخضرة تختلف كثيرا عن خضرة نباتات البستان الموصلي، لكنّها كانت رغم ذلك تبدو محاولة لتنسيق ذكي بين عالم الرقميات والتكنولوجيا المبهرة في هذا المكتب الزجاجي المتطور، وعالم الطبيعة القديم قدم العالم...

ورنّ الهاتف..

كان إيريك سيكمد ، المدير التنفيذي للشركة على الخط ، وبدا مستعجلا في الدخول في الموضوع على غير عادته في استهلال مكالماته بشيء من السؤال عن الصحة وعن الأسرة على سبيل اللباقة.

- نعم – قال إيريك- أعلمنا البنتاغون أنّ مسؤولا كبيرا فيه يطلب مكالمتكم بعد ربع ساعة من الآن.

ولم يكن ذلك المسؤول الذي سيكلم الرجل الثاني في غوغل مع تعذر مكالمة رئيسها والرجل الأول فيها مباشرة لعدم وجوده داخل التراب الأمريكي آنذاك، سوى روبرت غيتس ، وزير الدفاع الأمريكي شخصي.

ورغم أنّ اتصال المسؤولين السياسيين والعسكريين والأمنيين مع غوغل، واجتماعهم ببعض مسؤوليها لم يكن غريبا طوال

السنوات الماضية حول مسائل سياسية وأمنية أمريكية وعالمية، فإن سيكمد قد استلقى على كرسيه الهزاز رافعا نظاراته عن عينيه إلى أعلى جبينه، وراح وعلى طريقته في مجاله يضع الاحتمالات لهذه المكالمة الهامة.

سبق وأن كلمه الرجل الأول السابق في البنتاغون دونالد رامسفيلد بعد استقالة كولن باول طالبا منه بعض المعلومات والخرائط ...

ولأنّ سيكمد يعرف جيدا أهمية (الرقم واحد) في عالم اليوم، فإنه يعرف جيدا معنى أن تفصله دقائق قليلة عن الحديث إلى الرقم واحد في وزارة دفاع دولة عظمى لها شبكاتها الأمنية والعسكرية والاقتصادية والسياسية التي تسيطر على العالم بأكمله.

ولم تكن أحاسيسه لتخلو من شيء من الفخر بالنجاح الذي حقق، في مجال لا تستطيع أكبر شخصيات العالم تجاوزه.. إنه مجال التكنولوجيا الحية التي لا يكاد يستغني عنها أحد اليوم، سواء أكان حاكما أو محكوما.

وصحيح أنّ لشركة غوغل ملفات سرية جمعتها من خلال

البريد الإلكتروني لوارد وصادر المؤسسات والشخصيات العالمية ومنها غيتس ، وصحيح أنّ كشف هذه الملفات أو تسريبها يمكن أن يدمّر هذه الشخصية أو تلك الشركة، وأن لغيتس مثل الكثيرين غيره ملفه الخاص المملوء بالتجاوزات سواء في دردشاته الخاصة المتعلقة بالجانب الأخلاقي، أو في دردشاته المهنية التي كثيرا ما تجمعه عبر الأنترنت بكبار قادة جيشه في أفغانستان والعراق وغير ذلك من مناطق العالم.

لكنّ سيكمد الذكي أيضا يدرك أن انكشاف أمر تسريب من شركته يعني فقدان مصداقيتها أمام نظيراتها، التي كثيرا ما تسرّب عنها ولو اختلاقا ما يدمّر سمعتها.

لذلك، ورغم أنه يعرف الوجه الآخر لوزير الدفاع الذي سيكلمه بعد دقائق، فإنه لا يمكن أن يعامله إلا وفق الوجه الظاهر الذي هو وجه وزير الدفاع، الرجل رقم واحد في البنتاغون.

وللرقم (واحد) معناه الكبير في غوغل، وهو يعني كلمة غوغول التي اخترعها ملتون سيروت، ابن أخت عالم الرياضيات الأمريكي إدوارد كاسنر للدلالة على رقم ١ وأمامه مائة صفر. ..

وقد اختار مؤسسا غوغل وهما: سيرجي برين، ولاري بيغ هذه الكلمة عبر تحويرها في منتصف القرن العشرين لتكون اسما للموقع الذي برمجاه.

رن الهاتف...

امتدت يد سيكمد لتلتقط السماعة ذات الشكل الغريب والتي تحمل علامة غوغل.

- عِمت صباحا سيد سيكمد...
- صباح الخير سيدتي..هل من خدمة نقدمها لك؟
- معك مكتب وزير الدفاع روبرت غيتس..السيد الوزير يود مكالمتك...
- وبعد فاصل يمليه البريستيج ويستدعي تثاقل المسؤول الكبير قبل الرد ، جاءت تحية الوزير لبقة لكنها مغلفة ببعض الصرامة التي تستدعيها شخصية العسكري الأكبر في البنتاغون.
- سيد سيكمد ... تفخر الولايات المتحدة طبعا بما حققته غوغل، وأنا شخصيا أزعم أن أولادي قد أعفوني من

شراء الكثير من المراجع لبحوثهم الجامعية لاستغنائهم بما توفره خدمة البحث عبر موقكم....

شاكرا تلقى المسؤول في غوغل مثل هذا الإطراء ، وكان يعرف جيدا أنّ بيت القصيد ليس في هذه المقدمة بل في ما مهدت لقوله.

ولم ينتظر الوزير كثيرا، ليضيف:

- تدركون جيدا أنّ مسألة الأمن تخصنا جميعا، وشركة غوغل نفسها لا يمكن أن تكون كما تطمح إن كان هناك من يترصدها بتخريب أو يستهدفها بسوء.لذلك فأنا أدرك جيدا أنك شخصيا ستتفهم ما نريد قوله، وأنت رجل ذكي...

هناك انزعاج كبير في المؤسسات الأمنية الأمريكية من خدمة غوغل إيرث المجانية ...

وحاول رجل غوغل أن يقول شيئا..لكن رجل البنتاغون أكمل حديثه دون أن يعطيه فرصة لذلك:

نحن نعلم جيدا أنّ شركتكم قد حققت من خلال خدمة الخرائط واكتشاف الأماكن قرابة خمسة مليارات من الدولارات خلال

التسعة أشهر الأولى من العام الأول لإطلاقها، وهذا رقم ممتاز، لكننا نظن أنّ ضبط الخدمة في غوغل إيرث أمر ممكن دون المساس بسمعة أو بمداخيل الشركة...وقد تمّ إطلاع الرئيس أوباما شخصيا على قرارنا بطلب حجب بعض المواقع الحساسة من غوغل إيرث مما قد يساعد الإرهابيين وأعداء الولايات المتحدة من إلحاق أضرار بليغة بها.

كان لا بد لسيكمد أن يتدخل هنا ليفهم كلام الوزير بدقة، رغم أن ذكاءه قد هداه إلى فهم إجمالي لما أراد الوزير إيصال، فقال:

- سيدي الوزير، هل هناك تفصيل يضبط المطلوب؟
- طبعا ، نحن حددنا الأماكن المطلوب حجبها، وستكون أمامكم بعد دقائق من الآن.
- عبر البريد الإلكتروني؟
- ستكون على مكتبكم ورقا...نأمل تفهمكم .. شكرا.

انتهت المكالمة ...وكانت الإشارة الأخيرة للوزير عالقة في ذهن سيكمد، فلماذا قالها بالضبط؟ وما المقصود منها؟

" ستكون على مكتبكم ورقا".

هل يعدّ ذلك تشكيكا من المؤسسات الأمنية الأمريكية في سرية وتحصينات منع الاختراق عند غوغل؟ هل أراد الوزير الطعن بذكاء في شركة سيكمد؟ أم أنه أراد القول أنّ رجل الأمن أهمّ في احتياطاته الأمنية من رجل التكنولوجيا مهما علا كعبه وسما نجمه؟

برزخ

كان عقرب الدقائق يستعد ليلامس الرقم (١٢) على ساعة الجدار، لتكون الساعة السابعة مساء بالضبط ... وعلا صوت الأذان متتابعا

من مساجد المدينة : (الله أكبر الله أكبر)..

في تلك الساعة التي يلتقي فيها الليل بالنهار في مهمة هي شبيهة بالتسليم والاستلام والإيداع والاستيداع ، كان هناك ضابط للمباحث يذرع مكتبه... يحرقه التوتر الظاهر على وجهه وفي حركات يديه ورأسه...

ولم يكن قد مضى على إذاعة الخبر أكثر من ساعة ، كانت كافية لتتحرك شبكة جهاز المباحث في اتصالات سريعة للتشاور والتكليف...

وقد أخذ هذا الضابط دوره في مهمة البحث عن حل... رغم أنه فيما يبدو يعرف مسبقا أنه لا يملك أن يفعل شيئا غير التوتر وضرب قبضته اليمنى براحة كفه اليسرى أو العكس...

غير أن القبضة لا تصنع الحلول في واقع جديد أصبح يحتاج إلى أكثر من قوة البطش.

صحيح أنه – وطوال- ثلاثين سنة راكم الأوسمة والخبرات بناء على رصيد القسوة الذي يمتلكه ، غير أنّ الحل اليوم يحتاج إلى شيء آخر غير تلك المهارات التي كانت تتدرج به في سلم الترقيات في مسيرته الماضية...

إنه شبيه بكتاب ورقي في قرية إلكترونية لا تؤمن إلا بالرقميات... ولعله هو نفسه أدرك ولأول مرة أنه ضعيف بكل المعايير الجغرافية والعقلية وحتى المهنية.

وإلا فما هي حيلته لإطلاق سراح أحد أكبر رؤسائه في المؤسسة، اللواء فداء، المختطف في العراق؟

هو الآن أكثر من يعلم أن استعمال الأساليب القديمة في التصلب والمواجهة والانتقاد عبر نشرات الأخبار والبيانات الرسمية لن يفعل أكثر من التعجيل بتصفية اللواء أو زيادة الإصرار عند المختطفين على تصفيته.

في تلك اللحظة قرع أحد الضباط من تابعيه الباب ودخل ...

- كنت مع الأولاد حين سمعت الخبر في السيارة... تركتهم في المطعم وهرعت إلى هنا...
- إنه امتحان كبير...
- هل من رأي أو خطة ؟
- لا أعرف بالضبط ... يفترض أن ننتظر ردات الفعل وتفاصيل أكثر عما حدث...
- يمكن أن تتوجه عائلته إلى المختطفين بكلمة ...

- ربما، فكرت في الأمر...إنه أحد الخيارات القليلة التي نملك ، لكن أي قناة يمكن استعمالها في هذا؟ قناة الجزيرة الأكثر انتشارا ممنوعة هنا وأنت تعرف موقفنا منها وموقفها منا...

أخرج من جيبه علبة السجائر واستخرج منها واحدة وضعها في فمه مقلوبة وهمّ بإشعالها لولا أن نبهه تابعه... ولم يكن قد كفّ عن الكلام:

- قناة العربية استعمالها فيه خطورة، وسيستفز المختطفين ظهورُ المناشدة فيها، فيأتي الأمر بنتائج عكسية... وطبعا فلا يمكن اللجوء إلى قنواتنا الوطنية لأنها مهجورة ولا يشاهدها أحد...

كان النقيب فوزي ينظر إلى العقيد الذي عرفه منذ سنوات قويا صارما تملأ الحلول والبدائل جيوب سترته، وهو يقف أمامه الآن متوترا فاقدا للحيلة يصنع فقاقيع أفكار واحتمالات، ثم يعود ليفقأها هو بنفسه معلنا عدم جدواها...من قناة الجزيرة الممنوعة إلى قناة العربية الفاقدة للمصداقية إلى القناة الوطنية المهجورة.

كان إعلام القاعدة آنذاك قد نشط في المنتديات ومواقع الأنترنت

معلنا عن: "العملية النوعية في اختطاف الطاغوت الذي تحدى التحذيرات وجاء إلى العراق"، وقد حاول إعلام المختطفين فيما يبدو افتكاك اقتناع وتسليم شعبي بجواز تصفيته، وذلك بالتركيز على أن " أي عاقل سيعترف أن وجود ضابط مخابرات في العراق وفي غرفة عمليات استخباراتية مشتركة مع مخابرات الاحتلال يعني الخيانة التي تستوجب القصاص الصارم".

كانت نشرات الأخبار ساخنة تلك الليلة، وكان جدل كبير يدور في منتديات الشبكة العنكبوتية، بين مهلل للعملية وشاجب لها ومتوقف في أمرها منتظرا الحقيقة الضائعة بين وسائل الإعلام وغرف صناعة الأخبار.

كان جهاز التلفزيون في مكتب العقيد مكتوم الصوت، ربما لأن العقيد لم يستطع بعد أن غزت التكنولوجيا حتى قرى العالم النائية وتدفقت عبر الأجهزة والشرائح وخطوط الاتصالات أن يتخلى عن عاداته التي هي جزء من شخصية اكتسبها طوال ثلاثة عقود من الخدمة، أو ربما لأنّ العقيد يدرك جيدا أن الزمن زمن صورة وأن الألوان وحدها كافية للقول.

ظهر رئيس الوزراء العراقي على الشاشة متوترا كما كان

دائما.....

- انتبه النقيب فوزي إلى أنّ لظهور ذلك الشخص الذي تتهكم عليه دراسات نفسية أمريكية حين تقول أنه "يحاول عبثا تقليد صدام حسين في صرامته وسلوكه"، علاقة بالاختطاف، فأشار للعقيد الذي أزال الكتم وهو يصب لعناته وشتائمه على مذيعة العربية التي أحرقت أعصابه باستهلالها تفاصيل العناوين بخبر الخطاب الذي يلقيه الرئيس الأمريكي حول قضايا عالمية ساخنة.

وعلى نمط الإعلام القديم زمن المحطة الأرضية الوحيدة حيث لا بد من البدء بأخبار المسؤول الأول من زيارات ومعاينات وخطابات وتدشينات، تسير قناة العربية اليوم حين تقدّم خبر خطاب الرئيس الأمريكي على خبر لواء مخابرات عربي مختطف في العراق.

بعد خبر الرئيس الأمريكي، ظهرت المذيعة لتحيل إلى خبر التصريح السريع والمقتضب الذي خصّ به رئيس الوزراء العراقي قناة العربية، وليظهر رئيس الوزراء في الصورة كما تعوّد عليه المشاهدون دائما مشحونا ومضطربا، الأمر الذي

يوحي بتأزم وانهيار، وهو ما يرسم صورة حقيقة العراق الجديد في ظل شخصيات مضطربة وهي في السلطة بينما كان الرئيس العراقي صدام حسين ثابتا وصلبا حتى وهو أمام حبل اغتياله يوم عيد الأضحى.

تكلم المسؤول العراقي وأنصت الضابطان اللذان كانا يعلمان سلفا أنه لن يقول شيئا لأنه لا يملك شيئا... كان كلامه تعبيرا آخر عن فقدان التوازن أمام هذا الاختطاف الذي يضاف إلى المشاكل اليومية التي تنفخ الهواء على غير مراد سفن النظام العراقي ومثبتي عرشه الأمريكيين.

بضغطة زر أعاد العقيد ناجي الجهاز إلى صمته... وبدا من تأففه أن خيوط الأزمة قد ازدادت تداخلا مع مرور الدقائق.

كان الليل قد أرخى سدوله على المدينة، واشتعلت عيون مصابيحها تحت عيون نجوم السماء ... وعبر نافذة مكتب العقيد بدت الطرقات غير آبهة بما يحدث وهي تمد ذراعيها في الاتجاهين مثل شرطي مرور...ليعبر الرائحون والغادون...

رنّ الهاتف ...

- نعم سيدي ... نعم سيدي... سنفعل سيدي... موجود سيدي ...

حين أعاد العقيد السماعة إلى مكانها كانت عيناه قد أشرقتا بفكرة يبدو أنّ المتكلم قد أوحى له بها ... وكان بحاجة إلى فكرة ليكسر هذا الجمود وهذه الجدران التي تعيقه وترسم عجزه وعدم قدرته على الحركة.

- إنه سيادة اللواء ظافر..

قالها العقيد ناجي حين لمح في وجه صاحبه تساؤلا عن المكالمة..وأضاف :

- يريدنا أن نفتح خطوطا للتواصل مع شخصيات أو جهات تساعد على حل المشكلة... رغم أنّ الهامش هنا أيضا يبدو ضيقا ومحدودا... لقد اقترح الاتصال بأبي سعيد من تنظيم الجيش الإسلامي بالعراق، إنه من قادة التنظيم وقد زارنا مرة... لكن المواجهات التي دارت بين هذا التنظيم وتنظيم القاعدة يجعل من غير المجدي الاتصال بالجيش الإسلامي ...

- سيدي لماذا لا نتواصل مع الاستخبارات الأمريكية، لهم تواجدهم في العراق ويمكنهم مساعدتنا...
- لا لا... هل تظن أنّ المختطفين موجودون في المنطقة الخضراء؟

كانت هناك حلقة ضائعة، غير موجودة أصلا...لذلك لم يكن من الممكن للضابطيْن ولا لأجهزة العالم كله الوصول إليها..كان الأمر شبيها بقضية بين جهتين إحداهما في عالم الشهادة والأخرى في عالم الغيب... أو.... واحدة في الأرض والأخرى في المريخ...

لقد ضربتْ الولايات المتحدة سدا حديديا فاصلا بين الدول الرسمية وهذه الجماعات التي تستهدفها... وأصبح من أكثر الخطوط الحمراء حُمرة التواصل مع هذه الجماعات المسلحة سواء عبر التحاور أو التفاوض ... ومستحيل على جماعتين لا تلتقيان إلا بالسلاح وعبر عمليات التفجير أن تفهم إحداهما الأخرى أو تقنع إحداهما الثانية بفكرة أو رأي.

وفي واقع هذا الانقطاع كان اللواء فداء المختطف ينتظر شيئا لن يأتي ... فكل الخطوط مشغولة لكن رقم المراسَل غير صحيح...

برزخ

لم يفُت عمرَ وقد همّ بالرحيل إلى العراق أن يطلب رقم ابن عمه الضابط من عائلته في أمريكا، غير أنّه كان يقدّم في الأمر رِجلا ويؤخر أخرى، وهو لا يعرف إذا كانت الخطوط في

العراق في الشركات الأخرى غير آسياسيل مراقبة أم لا.. ثم أن وضع ابن عمه حساس، فهو ضابط في الجيش الأمريكي، ولعل أي مكالمة تأتيه من رقم عراقي تُلتقط وتسبب له من الأذى ما لا يرحمه به قادته..

لكنه كان يجب أن يتّصل به، فهو الوحيد القادر على أن يوصله في مسعاه إلى شيء..وكان ذلك ما يشغل فكره في تلك الساعة بعد صلاة العشاء، وقد ألقى الوقت عن ظهر بعيره حِمْلَ النهار الطويل إذ أناخه للراحة ..

كانت الغرفة التي ضمّت خمسة أشخاص أحدهم عمر، تمتص بعض مغازل الضوء عبر نافذتها... غرفة بسيطة بباب من حديد ونافذة خشبية زرقاء كسر أحد مربعات زجاجها، فحلّ محله لوح بلاستيكي أسود، بدا مشابها في المنظر العام لجلدة عين قرصان ..لا أثاث غير أفرشة تناثرت فوقها بعض الكتب...وكان الحديث حميميا متشعبا يقضم من كل موضوع حبة..

كان اليمني عبد الله يمضغ بعض حبات الهيل كما هي عادته، ولم ينج من تعليق لبدر الذي قال له:

- يا أخي أظن أنك في ماضيك كنت أكبر مخزّن للقات ..ما استفدنا شيئا ..من القات إلى الهيل .. ؟ يا أخي ارجع إلى مضغ المادة الأصلية التي تُبتَ عنها وأرِحنا، على الأقل سعرها أرخص من سعر الهيل..

قال بدر ذلك ثم تصنّع بعض الجدّ ليقول: لا حول ولا قوة إلا بالله..جئنا لنقاتل المحتلين أم لنجترّ الأعشاب ؟

ولم يردّ عبد الله بكلمة، فقد كان يدرك أنّ النقاش مع الخليجي بدر، نقاش عقيم..

قال اللبناني بدر وهو يوجه كلامه إلى بدر:

- لو كنت صداعا لما كفى لتسكينك طنّ من الأسبرين..يا أخي دع الخلق للخالق ، ألا يكفي غمّة الاحتلال فتزيده أنت غمة ؟

قال بدر:

- لن أتركه حتى ينتحر وآخذ إمارة المجموعة مكانه..
- قال محمد كلاي بسحنته السوداء الداكنة ولغته العربية التي تداخلها اللكنة الأمريكية:
- - كثرة استفزازك لعبد الله يدل على محبتك له..

وردّ بدر وهو لا يكف عن تنظيف ماسورة بندقية نصف آلية :

- وهل في بدر شيء يمكن أن يحبه المرء يا رجل؟ يا أخي هذا لا يصلح لشيء..هل هناك شخص عاقل رقيق الشعور يكتب لامرأة يدعي حبها ، يقول لها : " لو خيّروني بين فراقك والموت لاخترت فراقك ، تظنين الموت لعبة؟"..

وانفجرت الغرفة بضحكات متداخلة ، وقال عبد الله وقد احمرّ وجهه ولم يجد مناصا من بيان ما قد يُفهم على غير الحقيقة :

- " كان ذلك في ميعة الشباب في الثانوية..كنا صغارا"..

قال بدر:

- يعني.. الآن تحسّنت ؟

- قال عبد الله وهو يضيف حبة هيل جديدة إلى المُضغة داخل أشداقه :

- حظك في أنك لستَ أمريكيا ..وإلا كنتُ ملأتُ قميصك بالزهور..

وبدا أن محمد كلاي لا يفهم المعنى الخفيّ لما قاله عبد الله ، فقال له :

- فأنا إمريكي..لماذا لا تملأ صدري بالزهور ؟..

وانفجر بدر ضاحكا وهو يقول :

- تتطوّع لذلك؟..

قال عبد الله :

- للزهور قصة يعرفها بدر، فمنذ سنوات وعند وصولي إلى هنا، وفي أول لقاء لي به، سألني عن سبب مجيئي إلى العراق، فقلت : "جئت لأنثر الزهور على الأمريكيين..ألم يقل بوش أنّ العراقيين سيستقبلون جنود المارينز بالزهور ؟ أنا جئت لأشارك في ذلك"..

قال عبد الله :

- لا يمكن لبلد أن يتحرر من دون ثورة ..اذكر لي من التاريخ القريب والبعيد غازيا واحدا كان جالسا يتشمّس وهو يحتسي عصير المانجا المنعش ثم يقوم فجأة فيحزم حقائبه ويقفل راجعا إلى بلده بعد أن يستسمح ضحيته ؟

كان لعبد الله نظريته الخاصة، فهو يرى أن أوقات الصلاة هي ذاتها محطات حيوات الأمم والشعوب، فالليل المدلهم الحالك لا يمكن أن يزول إلا بفجر كبير .. والفجر يحمل معنى الانفجار .. كل شيء يخرج إلى النور يحتاج إلى انفجار ..النبتة تحتاج إلى

فلق لقشرة الحبة الصلبة لتخرج ، "فالق الحب والنوى" .. والكون خرج من حالة السديم إلى حالته الحالية بانفجار " ..السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما".. الجنين لا يخرج من الرحم إلا بانفجار الغشاء الأمنيوسي .. والنهار لا يخرج من رحم الليل إلا بفجر ..لا تقوّي لضعيف ، ولا ظهور أو ظُهر لمفقود إلا بانفجار فجر ..لكن ظهور الأمم والشعوب مصيره إلى عصر يعتصر فيه الأمر بين البقاء والزوال ، وذلك هو العصر ..والأمم مثل الشعوب لا بد لإمراطورياتها ودولها أن تبيد بعد سؤدد وأن تزول بعد ريح..لذلك يأتي المغرب فتغرب شمس تلك الدول والأمارات ، لينطوي ذكرها في الليل مرة أخرى ، في انتظار أن يأتي من أبنائها من يلبس فكر الفجر ليصنعه من جديد..

- قال عمر: ولماذا يكره بعض العراقيين العرب والمسلمين الذين جاؤوا للدفاع عن العراق؟

قال بدر: وهل هذا الأمر يحتاج إلى جواب؟ لأنهم يكشفونهم..الجبان يكره الشجاع لأنه يكشف جبنه كما يكشف السريع عجْز البطيء في السباق.. البعض سلّم العراق ليتفادى

الحـرب .. وحـين تطلـق أنـت رصاصـة فإنـك تفسـد كـل حساباته...كما تفسد نشوة الخفاش حين تنير المكان.. لقد كان "بيدل" يقول : " الحقيقة دائما تؤلم من تعوّد على الأوهام".

كان محمد كلاي قد أعاد ملء أكواب الشاي أمام السّامرين ،وهو يهمّ بأن يجيب عمر عما سأله عنه من سبب تسمّيه بهذا الاسم الذي هو نفسه اسم الملاكم العالمي الشهير..

ومحمد هذا شاب أمريكي من هارلم.. جاء إلى العراق ضابطا في الجيش الأمريكي، وكان رافضا لذلك، وحين اقتادوه بالقوة وهددوه بالقتل إن هو استمر في إضعاف معنويات زملائه، ما كان منه إلا أن يستميت ويظهر الطاعة .. لكنه أضمر في نفسه شيئا..وبعد شهر من وصوله إلى العراق فرّ من صفوف الأمريكيين وانضم للمقاومة.. أما عن سبب تسميته بكلاي، فهو لا يسأم من أن يسرد في كل مرة على سائليه قصة الملاكم الأمريكي محمد علي كلاي الذي رفض الذهاب إلى فييتنام للمشاركة في الحرب، وكان ذلك سببا في حرمانه من لقبه العالمي ومنعه من الملاكمة لثلاث سنوات...

قال عمر: وأنت مقتنع فعلا أنّ الأمريكيين على باطل في

حربهم هذه؟

قال محمد كلاي: وهل الأمر بحاجة إلى جواب؟ شخص آمِنٌ في بيته، يُغير عليه غيره، ويبيد عائلته ويأخذ ماله.. هذه هي الصورة ..هذا فعل العصابات والخارجين عن القانون..

تنهّد عمر وهو يوجه سؤاله إلى عبد الله اليمني:

- وأنت يا عبد الله ، كيف وجدت نفسك هنا؟

قال بدر مسايرة لما تقتضيه صيغة سؤال عمر:

- نام في حضرموت وفي الصباح فتح عينيه فوجد نفسه في الأنبار، ثم ركب الحافلة إلى الموصل.. يا أخي هو جاء إلى هنا بنفسه يريد جمع الغنائم ليتزوّج ويشتري سيارة هامر..

كان لا بد لبدر أن يتدخل في كل ما له صلة بعبد الله .. وكان على هذا الأخير أن ينتظر انتهاء كلام بدر ليجيب عمر عن سؤاله قائلا:

- والدتي عراقية ، وحين قتل الأمريكيون أحد أخوالي لم أتحمّل رؤية دموع والدتي وهي تسحّ صباح مساء..كان قلبها يذوب وكنا نحن نذوب معها ..فقررت أن أهديها خمسة قلوب من قلوب المحتلين..

- ولماذا خمسة بالضبط ؟

- لأنّ خالي القتيل ترك خمس بنات صغيرات تحترق قلوبهن دونه يتما وفقرا وضياعا..

قال بدر:

- أبشّرك يا عمر أنّ عبد الله جمع إلى الآن أحد عشر قلبا فقط..

قال معتز، وهو شاب لبناني أشقر مع زرقة عينين تختصر البحر:

- لئن كنت جئتَ من أجل ليلى يا عمر، فلكلٍّ هنا ليلاه ،فبدر كان طالبا في جامعة بغداد، وحين بدأت أمارات الحرب لم تكن نفسه تطاوعه ليترك بلدا استضافه في الرخاء، كان وفاؤه ورجولته يوجبان عليه أن يبقى، وبقي .. وأنا ... أنا ما جئت إلى هذا البلد إلا انتقاما لوالدي الذي قتله الأمريكيون في لبنان حين غزوهم له سنة ١٩٨٢..

- معقول هذا ؟

- ولماذا لا يكون معقولا ؟ أيحلّ لهم أن يأتوا من أمريكا ليقتلوا والدي في لبنان ، ولا يحل لي أن آتي من لبنان لقتالهم في العراق؟

رغم أنّ العدل هو أن أذهب لمقاتلتهم في أمريكا..فهم يقتلون الناس في أوطانهم ، والمعاملة بالمثل تفرض أن يموتوا هم أيضا في وطنهم..
أم أنّهم من نطفة من بيبسيكولا بينما نحن من نطفة ماء مهين؟
كان معتز غاضبا ومُحتدّا ، وبدا أنه يحمل جرحا غائرا عنيدا أصرّ على النزف طوال كل هذه السنوات، ولا يبدو أنه سيلتئم قريبا..
كان ليل الموصل قطارا أسود يتحرك وئيدا نحو محطة الصبح ، لكنه كان في أوّل رحلته، وكان في نفوس الخمسة ما يستلّ خيط الحديث ويرسل الكلام منشورا يقلب المواجع وينكأ الجراح..
تمدّد عبد الله على فراشه متوسدا ذراعه ، بينما وجهه إلى السقف الذي تدلى منه مصباح كهربائي مغبرّ ، وما هي إلا لحظة حتى كان شخيره يعلو على أصوات حديثهم، وقال بدر وهو يقلّب كفيه ويعلي كتفيه، ويمط شفته اليمنى نحو الأمام :

- لا يكتفي بالشخير، لكنه أيضا يبكّر به ..

ولعله رأى أنّ مزاحه في نوم عبد الله يفقد مبرره، لذلك قال:

- يعلم الله أني ما رأيت مثله صبرا ولا هدوءً ولا سعة صدر، وهو إلى ذلك أشجع مَن رأيت...

ورغم هذه الشهادة، لم يكن بدر يستطيع أن يقول كل هذه

الجملة الطويلة الجادة دون أن يرجع بعدها إلى دأبه، فأضاف..

- شجاع رغم أنّه لا يزن بثيابه مبللا ثلاثين كيلوغراما...

ثم أشار بدر إلى رشاش عبد الله القريب من وسادته وهو يقول:

- أتعجّب كيف يحمل هذا وهو أثقل منه؟ ثم ألم تنتبهوا إلى أننا كلنا نعلّق أسلحتنا على الجدار، إلا هو ، لا ينام إلا ورشاشه تحت وسادته..أظنه لا يثق بنا..

وتداخلت ضحكات هادئة متقطعة حاول أصحابها كتمها.. وعبْر النافذة تسللت نسمة صيفية أذابت القلوب وحرّكت في النفوس ذكرى نسائم الديار النائية.. وبمثيلاتها تُذكر الأشياء...

كان ليلا صيفيا هادئا لا يعكّره سوى احتمال السوء في بلد أمسى ميدانا لمعركة تداخل فيها الأسود بالأبيض فطغى الرمادي ..بينما كان المشترك بين كل الظلال هو أن لكل ليلاه التي وهب لدربها قدميه، فللجندي الغربي ليلاه، وللمقاتل العراقي أو العربي ليلاه ..وللقاعد ليلاه التي لم تكن سوى التقاعس أو الخوف أو المصلحة ... وتساقطت في ظلام ليل الموصل مناديف من الشعر:

"يا صديقي
مأربُ السدّ بلا سدٍّ
وخيل الله عطشى
وشماريخ نخيل النار أمستْ
دون ريحٍ تُخمدُ
ولليلانا على القرميد سربٌ من حمامٍ
أبيضَ اللون إذا حطّ
فإن طار فلونٌ أسودُ
عربٌ نحنُ ولكنْ دون قطمير دليلٍ
غير أوراق كبار السنّ تبقى
في صناديق غبارٍ
في تراب البيت كنزا توأدُ
ترسم الأنسابَ أشجارا
وقد مالت غصونٌ
لجذوع العجمِ
الردةُ في الأنسابِ أمست في ربانا تُحمدُ
عمرو ما عاد كعمرو

ولزيد قلبهُ المربوط خلف البحرِ
والمفتون في ظل مناة يسجدُ"[1])

كان الضابط عمر يتلفّت يمنة ويسرة وهو يقطع الشارع الطويل بلباس مدني..أما مدينة الموصل فكانت في تلك الساعة مما بعد العصر وقد برد قرص الشمس واصفرّ مثل سبيكة ذهب، تطلق الناس من قيلولتهم زرافات ووحدانا..

[1] - من قصيدة للكاتب ،بعنوان :"طلاسم على حجر عربي عتيق".

ولم يكن في عمر ما يميزه عن أبناء المدينة أو يلفت الانتباه إليه.. كان في قسماته ملامح عربية لا تخطئها العين، أسمر البشرة أسود الشعر.. قوي البنية ..يميل إلى الطول ..

لقد بدت له المدينة في تلك اللحظة لوحة فنية فاتنة تتداخل فيها حنطية التراب بخضرة النخل.. تشوبها مسحة من تداخل القِدم والرهبة والحزن والغموض، فتضفي عليها سرّا عجيبا لتلك المدن التي لا يمكن للمرء أن يعرف فيما تفكّر أو لماذا هي صامتة؟

هذا مساء الموصل بكل ما فيه من المتناقضات والتباين.. مساء الموصل بكل أبناء المدينة في خنادق الحرب أو الانتظار، وخلف جدران الخوف أو السجن، وبكل الأغراب متعددي الجنسيات الذين تنطوي عليهم جوانح هذه البيوت الحابسة أنفاسها ، أو تلك الثكنات المتخفية خلف الأسوار العالية...

حينما تعانق الرجلان كانت اللحظة هاربة مستعصية على الإمساك بها.. شابان يجتمعان في جد واحد ، لكنهما يفترقان في خندقين ..أخوين عدوين..

ولئن كان من الممكن للمرء أن يختفي في مدائن الشرق والغرب

خلف أقنعة وادعاءات، ففي العراق لا يمكن له أن يأخذ إلا شكله الحقيقي .. هو كما هو ..حتى إذا أريدَ له أن يكون غير نفسه..

هل كان العراق هو المرآة الوحيدة الصادقة التي تعكس الصورة كما هي، ودون زيف؟

هل كان العراق هو الساعة الرملية الوحيدة التي تشير إلى الوقت بدقة؟.

هل كان العراق هو البوصلة الوحيدة التي تصارح الخطى بحقيقة اتجاهات دروبها؟

العراق..لحظة العري الوحيدة التي كشفت حقيقة محمد كلاي، وصدق عواطف عمر، وأحقاد معتز، كما كشفت حقيقة الذين سجنوا ليلى وقتلوا شقيقها عثمان، وحقيقة ديمقراطية الغرب في أبي غريب، وحقيقة الذين لم يطلقوا رصاصة وبغداد تسقط أمام أعينهم متلوية تحت وابل رصاص الأغراب ،وحقيقة الذين يدّعون في غير العراق بأنهم ثوريون وحاقدون على الشيطان الأكبر الذي يؤاخونه في بغداد ويقتسمون معه الغنائم.. وحقيقة الدول التي أسلمت عاصمة الرشيد لقدرها

وقبضت الثمن ، وحقيقة الذين خانوا والذين تراجعوا والذين طعنوا والذين قُتلوا والذين قَتلوا ، والذين رسموا جسر الرصافة بدمائهم ، والذين أغمضوا عليه أعينهم الدامعة وماتوا ، والذين حملوه إلى المنفى في قلوبهم..والذين قصفوه ..والذين تركوه ولاذوا باللجوء ليرصّعوا بذكره بعد ذلك قصائد يحصدون بها جوائز لم ينل الجسر منها نقيرا ..

كان الضابط عمر في تلك الساعة وهو يحتضن ابن عمه ، يشتَمُّ من خلاله رائحة الوطن ، ويمد جسور المصالحة مع ذاته الممزقة.. ولعله أحسّ في تلك اللحظة أنه يمارس حقه الطبيعي ، فالرئيس الأمريكي نفسه رحل ذات يوم إلى كينيا حيث موطن والده وأجداده ، ليتصالح مع نفسه ، وكتب مذكراته " أحلام من أبي - قصة عرق وإرث".. وأوباما ليس في الأخير سوى بطل في رواية "الجذور" لأليكس هالي..تماما مثلما أنّ فتاة برتغالية من أصل كوري تذهب إلى كوريا في رواية"باستارد" لراؤول تسيليك للبحث عن جذورها .. وكل ذلك لا يختلف عن رواية الضابط عمر ، حين لا بد أن يأتي إلى العراق للقاء جذوره التي تحاول بعض أغصانه التمرد عليها .. ومشكلة كبيرة أن تكون

الجـذور في أرض، بينمـا الأغصـان والفـروع في فضـاء آخـر بعيد..وتكبر المشكلة حين يكون لزاما على الأغصـان أن تقاتـل جذورها..

كان الضابط عمر يحس أنه لن يستطيع البقاء كثيرا فـوق نقطـة التجاذب والصراع الرهيبة التي علّقه عليها الواقع بين واجبات انتمائه الوطني الأمريكي، والواجبات التي يستوجبها انتمـاؤه الثقافي.. وكان يرى أن الأمريكيين يقاتلون العرب والمسلمين في العراق، ويحس أنهم يقاتلونهم أيضا في داخلـه.. أحذيـة جنـود المارينز الغليظة السوداء، كانت تدوس أرض الكرخ والرصافة وتلوّث شط العرب كما تفعل ذلك في قلبه القلق المضطرب بين بين..

وكان عليه ليحسم أمره في المعركة الميدانية في العراق، أن يحسم أمره في المعركة الدائرة في داخله.. كل الأمور تبدأ من الـنفس .. وكان مما قاله "ليو تولستوي": "الجميع يفكـر في تغيير العـالم، ولكن لا أحد يفكر في تغيير نفسه ".

على صدر ابن عمه ، والدموع تنهمر من عينيه، كـان الضـابط عمر قد قطع المسافة الفاصلة بين التردد والقرار ، أو كاد.. بينما

كان الدكتور عمر، طبيب الأسنان، في تلك اللحظة يخطو خطوة عملاقة نحو الوصول إلى ليلاه ..

كانا من طينة واحدة، ولم يكن الفرق بينهما سوى أنّ كلاهما يقف في الخندق المعادي للآخر.. وقد جمعهما الاسم، بينما اختلفت تبعاته عليهما في هذا البلد حيث دفع عثمان، شقيق ليلى، ضريبة اسمه شأنه شأن ملايين من الناس غيره..

ولئن كان عمر الضابط قد تجاوز خطر الاسم عند الحاقدين عليه، بوجوده في صفوف المارينز، فإن ابن عمّه لم يكن كذلك..لذلك كانت الحقيقة مفجعة والتناقض صارخا في فكر يؤاخي عمر الأمريكي ، ويحقد على عمر العربي..وكان ذلك هو بالضبط عنوان المعركة الدائرة ..

قال الضابط لابن عمه مندهشا: ما الذي أتى بك إلى هنا؟

فلم يرد عليه ابن عمه، طبيب الأسنان، سوى بإعادة سؤاله إليه، كما تفعل المرآة حين تعكس الضوء :

- وما الذي جاء بك أنت؟

كان السؤال صدمة أخرى للضابط، وقد كان قبل ذلك السؤال أكبر حُجة ، بينما هو يكتشف الآن أنّ ابن عمه لو

أجاب لكان جوابه أقرب إلى المنطق والقبول من جوابه هو .. ابن عمه عربي مسلم يأتي إلى بلد عربي مسلم، ولا غرابة في ذلك، ولا فيه ما يبعث على الدهشة..بينما..فعلا..ما الذي جاء به هو من أمريكا ؟

ابتسما ..وكان كلاهما يعرف ذكاء الآخر ويدرك أن الرسالة قد وصلت ..

قال الدكتور عمر: خطيبتي مسجونة هنا ،في سجن إدارته مشتركة بين الأمريكيين والنظام العراقي ..

- عراقية ؟

- طبعا عراقية من هنا من الموصل..

لم يكن في الغرفة سواهما .. ولعلهما لم يجدا مساحة تتسع لطقوس اللقاء الأول من سؤال عن العائلة أو أخبارها، فقد احتوشهما الهمّ في اللحظة الأولى للقائهما، وكان عليهما أن يذعنا للأمر الواقع، وأن يؤجلا الكثير من الأسئلة لِما بعد هذه المهمة التي جاء الدكتور عمر من أجلها يقطع الفيافي والقفار .. بالليل والنهار ..

- أتحبها ؟ قال الضابط عمر وهو يضرب على منكب ابن عمه بقبضته..
- من خلالها بدأت أحبّ العراق وقضيته..
- يعني ذلك أنك من خلالها بدأت تكرهنا نحن الأمريكيين؟
- لن أحدثك عن فتاوى الدين في أنّ الذي يولّي الدبر للأعداء أو يقعد عن مواجهتهم يكون على خطر في علاقته مع الله والدين.. لكني سأذكّرك بقول جيفرسون حين قال أن "مقاومة الطغاة من طاعة الله".. بينما قال توماس مور: " الانتقام من الطغاة هو أفضل أنواع الانتقام".. الذي لا يدافع عن أرضه لا يدافع عن عرضه .. والذي لا يدافع عن مسجده لا يدافع عن دينه .. صدقني ..لو أن جيشا من الديكة الأمريكيين غزا شعبا من غيرهم من الديكة، لدافع شعب الديكة ذاك عن أرضه وحماه.. هذا حق طبيعي .. ومشكلة الغزاة أنهم لا يقتلون فقط الشعب الذي يغزونه، بل يقتلون الحق..حقه في الدفاع عن نفسه حين يجردونه منه. لذلك فإن الحرية ليست في أن تعيش عبدا حاملا شعارها تحت أحذية الأسياد، كما هو شأن المستظلين اليوم بظل الاحتلال ..

كما أن الحرية ليست في أن تعيش جبانا حتى إذا لم تكن تحت الاحتلال.. الحرية هي أن تحس نفسك بلا قيود حتى مع وجود الاحتلال.. حتى وأنت في السجن..هناك أناس أحرار وهم في السجن، وأناس عبيد وهم سجّانون..تفهمني ؟ الحرية توجد داخلنا يا عمر ..لذلك يقول فرجيل: " الجبن عبودية، والشجاعة حرية".

قال الضابط عمر:

- تعني أنني لستُ حرا ، رغم أني في صفّ الغزاة ؟
- الحر هو المقاتل الذي كسر كل الدوائر والأقفاص..قفص الخوف من المحتلين وأعوانهم، وقفص طابوهات التهم ..وقفص الخوف والتردد داخله.. هذا هو الحر..
- وكيف يمكن أن يكسر المرء الخوف داخله..؟
- ليس لكسر الخوف تفسير سوى كسر الخوف، لذلك ليس للأمر تعريف إلا أن يفعل ذلك فيخرج من الدوائر الضيقة التي سيعثر على نفسه خارجها إن كان حرا فعلا، أما إن كان عبدا فسيفقد نفسه حين يخرج إلى الحرية، لأن مكانه الحقيقي ضمن الدوائر وداخل الأقواس..

- أنا أعيش الاضطراب والتردد يا عمر..
- إذا لم تعش ذلك فذلك يعني أنك قد مُتّ ..ليس ذلك فقط..بل يعني أيضا أنك قتلتنا جميعا ..قتلت قومك ..وقتلت تاريخك، ودينك، وأصلك، وانتماءك، وثقافتك.. أنت مضطرب لأنك حيّ.. المناضل الأممي أرنستو تشي غيفارا قال يوما وقدماه تنغرزان في أوحال جبال الثورة: " لن يكون لدينا ما نحيا من أجله، إن لم نكن على استعداد أن نموت من أجله".
- أنا موجود في الجيش، ولأني أحسّ بتأنيب الضمير وأرى صباح مساء ما الذي يقترفونه في حق العراقيين، فإني خائف من أن ألقى حتفي يوما وأنا على هذه الحال..
- لا يمكن لك أن تحس بالاستقرار إلا إذا انسجم ما تريد أن تحيا من أجله مع ما تريد أن تموت من أجله..وأنت ..هل أنت مؤمن بما تحيا من أجله هنا في العراق؟
- طبعا لا، فأنا أحسّ بالتمزق كلما خرجت في عملية..كلما داهمت بيتا أحسّ أني أعين عصابة خارجة عن القانون

لمداهمة بيتي..وحين أرى امرأة عراقية تتعرض للأذى أحسها والدتي..

- حياتك ليست حياتك..لذلك فإن موتتك لن تكون هي موتتك فعلا..

قال الضابط عمر:

- أكون في صف العراق؟

- أو تكون ضد العراق ..

أطرق الضابط ، وكانت أصابعه تفرك جبينه في توتر بادٍ..وأضاف الدكتور، وكان أذان المغرب يرتفع رائعا كما كان دائما...:

- استمع إلى هذا ..هناك أشياء لا تغيّر لونها .. الأذان زمن الاحتلال هو الأذان قبله..والنخل والرمل ودجلة.. صلاة المغرب لم تزل ثلاث ركعات يا عمر ..لم يستطيعوا أن يغيّروا في العراق قطميرا من التاريخ ولا من لون النخل ولا من دجلة.. لم يتغيّر شيء..

- والعراقيون الذين هم مع الاحتلال ..ألم يتغيّروا ؟

- لم يتغيّروا ..هكذا كانوا قبل الاحتلال .. هذه طينتهم.. هم الذين جاؤوا بالاحتلال ليكون سيدا عليهم وعلى بلدهم.. هل تصدّق هذا ؟!
- فعلا .. لم يتغيّر في العراق شيء..
- العراق أكبر من أمريكا يا عمر..أكبر منها تاريخا وجذورا وحضارة ..العراق هو الذي علّم الناس كيف يكتبون وكيف يقرأون وكيف يقاتلون..لذلك فقدر العراق أن يغيّر أمريكا وليس العكس..
- العراق يغيّر أمريكا؟
- أنت كنت مطمئنا بأمريكيتك ..العراق غيّرك الآن..رمى في بركة المياه المستقرة داخلك حجرا فحرّك دوائر القلق والأسئلة..وأثار في نفسك أمواجا تصطخب..

وأنا ..ما الذي غيّرني..؟ العراق هو من فعل ذلك.. وصورة الجندي الأمريكي الذي لا يهزم..من أحرقها ؟والديمقراطية، من كشفها في أبي غريب؟ والنصر الأمريكي الحلم الذي جاءت من أجله أرتال الغزاة الغربيين ..من نسفه؟ والتحليلات الغربية بأنّ العراقيين سيستقبلون الاحتلال بالزهور..من كشف زيفها ؟

والناخب الأمريكي من فرض عليه أن يختار رئيسا يعِد بالانسحاب من العراق لإيقاف رحلات التوابيت الملفوفة في العلم..؟ والرئيس الجديد..أوباما ..من الذي أقنعه أنه لكي يفوز لا بد أن يعد بتغيير سياسات بلده في العالم الإسلامي ويسحب جنوده من العراق وأفغانستان؟ العراق يا عمر لا يتعلم من أحد فهو يعرف كل شيء ..العراق فقط يعلّم.. وقد علّم الجميع..

- قال الضابط وقد ظهر من ملاحم الجد على وجهه أنه قرر شيئا :

- في أي سجن يعتقلون خطيبتك ؟

وحين صلّى الضابط عمر لأوّل مرة مع ابن عمّه ..أحسّ براحة نفس ينسجم فيها لونه مع ألوان لوحة المدينة ،بكل ما فيها من الجوامع والنخل وليل الشرق الحالم الخلاب..

كانت خطاه تقرع دفّ الدرب المؤدي إلى الثكنة ، وفي رأسه جملة يتردد صداها : " حياتك ليست حياتك..لذلك فإن موتتك لن تكون هي موتتك فعلا ..".

برزخ

حينما كانت الدبلوماسية تعلن فشلها ،ليس بضياعها في طريق شائك أو معتم، بل لانعدام الطريق الذي تخطو فيه خطوتها الأولى أصلا.. كان الضابط فداء يخضع لجلسة استنطاق قاسية في أحد البيوت النائية في طرف الموصل..

وكان عمر مع عبد الله اليمني، ومعتز اللبناني، وبدر الخليجي ، ومحمد كلاي الأمريكي، من الذين حضروا تلك الجلسة..

جالسا على كرسي حديدي ، بدا اللواء فارس منهارا ، رغم أنه قد حاول في يومه الأول أن يبدو متماسكا...

وكان العمران ،الضابط والدكتور قد خططا لاختطافه للحصول منه على بعض المعلومات عن القاعدة التي تتواجد فيها ليلى، ولأنه كان أقدم من الضابط عمر في تلك القاعدة، وأعلم منه بمداخلها ومخارجها، فقد كان المرشح الأكبر للاختطاف..

كانت الحرب النفسية التي تعرّض لها من خلال الكلمات التي تسربت إليه من خلف باب الغرفة التي يتم احتجازه فيها ، قد

دمّرت كل احتياطيات التماسك عنه..وكان خلال الأيام الماضية يلتقط بعض ما يتهامس به الحراس خلف باب الغرفة بأن مصيره الموت ..وأنّه لا مناص له ولا منجى .. ولعلهم كانوا يقصدون إسماعه في جزء من مهمة إعداده للاستجواب..

حين أزال محمد كلاي الغطاء عن عيني الضابط الستيني ، لم يكن منه إلا أن أجال عينيه في الغرفة الموصدة الباب والنافذة.. ولم يبذل جهدا في اكتشاف بعض جنسيات أولئك المسلحين الواقفين حوله من خلال لهجات كلامهم...ولعله تمنى في تلك اللحظات أن يعثر بينهم على شخص من جنسيته ..لكنّ الرياح دفعت سفينة أمله ذاك إلى غير الوجهة التي يرتجيها..

- سيد فداء.. لماذا أنت هنا؟
- أنا هنا لتنفيذ أوامر قيادتي والقيام بواجبي..
- أي قيادة تقصد؟
- قيادتي الوطنية...
- لكن هذه المعركة ليست معركة قيادتك ولا نظامك..وأنت موجود في صف القوات المتعددة الجنسيات..

- وبعض عناصر مخابراتنا موجودة في هذا التحالف الذي ذكرتَه..
- يعني أنك جندي في صف الاحتلال ؟
- لست كذلك ..أنا جندي في صف بلدي ..
- وبلدك في صف الاحتلال ؟
- لا ..أقصد ...

بدا الضابط مربكا ..وقد أدرك في تلك اللحظة أنه لا يملك جوابا ..أو أنه يملك جوابا ليس في صالحه ..لذلك لم يجب بغير الصمت..

لم يدرك عمر كيف ساقته الأقدار إلى هذا .. غير أن الأمور هنا متداخلة يفضي بعضها إلى بعض..ولكل شيء مرة أولى.. ولم يكن إنقاذ خطيبته من الأسر سيتيسر بسهولة شرب الماء، كأن يذهب بمفرده ودون إطلاق رصاصة واحدة فيفك قيودها ويحملها على فرس بيضاء تطير بهما في الجو باتجاه دياره...

تلك هي اللعبة الكبيرة التي يدخلها المرء من أطرافها ..لكنها لا تلبث أن تدفع به إلى جوهرها ..إلى قلبها ..

وقلب اللعبة هنا هو قلب الحرب الكبيرة والصراع المرير الذي

تتشابك فيه أطماع ومصالح وخفايا ، تتجاوز الفرد إلى دول كبرى وجماعات متغوّلة..

وقال السائل وهو يشير بيده إلى المصوّر بأن يقرّب اللقطة من وجه الضابط المتصبب عرقا ، والمسكون بخلجات الخوف في تلك اللحظة :

- سيد فداء.. لجان التحقيق في الغرب أثبتت أن غزو العراق لم يكن مبررا بعد سقوط مبرر كذبة امتلاك أسلحة نووية.. برأيك هل الأمريكيون على حق في وجودهم هنا..؟

كان الضابط مترددا جدا ..فالجلسة مصوّرة .. ولا شكّ أنّ الشريط سيكون يوما ما في يد قيادته ، أو حتى في متناول الرأي العام تتناقله القنوات ومواقع الأنترنت.. ولم يطل به التفكير حيث ارتفع صوت صارم بالسؤال :

- هل هم على حق ؟
- لا أعرف ..
- أنت من بلد عربي ..ما الذي تقوله لو جاء الأمريكيون بدافع مكذوب فاحتلوا بلدك ودنسوا عرضك وشردوا عائلتك .. يكون معهم الحق ؟

كان السؤال فخا محكما ، وكان موقعه كعسكري يحتّم عليه أن يقول كلمة لا بد منها لإرضاء نظامه، لذلك أجاب :

- طبعا لا ..ليس من حقهم فعْل ذلك..
- وإذا فعلوا ذلك ..هل تقاتلهم؟
- ربما .. إذا قرر نظامي قتالهم ..
- وإذا لم يقرر النظام ذلك ..
- أنا جندي ..
- جندي بشرف الدفاع عن الوطن المحتل، أم بواجب الدفاع عن النظام الراضي بالاحتلال؟

كانت تلك هي الإشكالية الكبرى باتجاه تعريف الوطن، وهل هو البلاد ببشرها وتاريخها وثرواتها و..؟أم هو النظام؟ وإذا حدث أن افترق طريق النظام عن طريق الوطن، فمع من يجب أن يكون المرء..؟ وجاء السؤال صارما مرة أخرى :

- إذا جاء ضابط عربي، فدخل بلدك ، ليس من خلال نظامك، بل من خلال التعاون مع الاحتلال ..فماذا يكون ذلك؟

كان الضابط قد فهم معنى السؤال وما يوصل إليه ذلك المعنى ..

وسيكون في إجابته لو أجاب إدانة لنفسه.. لذلك لاذ بما يلوذ به الكرسي الحديدي تحته..الصمت ..

- سيد فداء ..أنت الآن كبش فداء .. أنت تدفع ثمن ما جئت لأجله إلى العراق.. أنت في الصف الآخر ..
- لا ..أنا عربي .. مسلم..
- هناك جنود عرب مسلمون في الجيش الأمريكي ..وهم يقتلون العراقيين.. وتاريخيا لم تخلُ صفوف الأعداء من طابور خامس من أبناء البلد الذي يتعرض للغزو .. أوباما نفسه ليس أمريكيا ..إنه أفريقي .. وأصوله إسلامية .. ليس المهم من أنت ..المهم ما أنت ..وأنت عربي مسلم تقف في صف يبيد العرب والمسلمين..
- الضرورة..
- من الذي فرض هذه الضرورة ..؟
- نظامي ..
- لأجل ماذا؟
- لأجل مصالحه طبعا ..

- للأسف ..مصالح نظامك كانت مع العدو ..وهي ذاتها مفاسد للعراق وشعبه .. لذلك فمنطق التجارة يقول أن كل جهة لا بد أن تراعي مصالحها وتتحمل ما يلحقها من المفاسد في سبيل ذلك ..هذا هو منطق اللعبة.. نظامك له مصالحه ، وللعراق مصلحته التي لا يمكن أن تتحقق بغير إفساد مصلحة نظامك.. ونحن لا نريد أن نعدّ طبخة عدس، نضعه في صحن وننقيه من الشوائب أو الحصيات .. الحرب تطبخ العدس بحصاه وشوائبه ..وأنت مهما كنت، فأنت في موجود في الصحن.. تهبُّ الريح عكس ما تشتهي فينالك ما ينال غيرك ..أو يتحقق مراد نظامك في المصالح فتنال ما ينال غيرك..
- وكيف يمكن أن تُسْقِطوا حرمةَ دمي وأنا عربي مسلم، فتستحلوني كما تسحلون جنديا أمريكيا ؟
- أنت الذي أسقطت حرمة دمك حين وضعت نفسك في صف ذلك الجندي الأمريكي ..
- وتقتلون عربيا مسلما ؟

- نسيت أن تضيف : في صف العدو .. نعم..نفعل .. كما تفعلون أنتم حين تقتلون عربيا مسلما بريئا.. في بيته ..في وطنه ..
- هذا خروج عن المنطق..
- الحرب كلها خروج عن المنطق .. لذلك بيّن الله في القرآن أنّ حروب الأنبياء أنفسهم قد تحدث فيها أوزار ..قال تعالى : "حتى تضع الحرب أوزارها".. ويحدث أنّ صحابيا مثل خالد بن الوليد أو أسامة بن زيد يرتكب خطأ فيقتل حتى مسلما بريئا وليس مصطفا مع العدو .. لكنها الحرب .. ليس هناك حرب بيضاء نظيفة ..ما دام هناك عصفوران يتقاتلان فوق سنبلة ، فلا بد أن تتضرر السنبلة..

قال الضابط وهو يوجه كلامه ونظره إلى عمر ، وقد قرأ على وجهه علامات البراءة والطيبة :

- أنا لا دخل لي في كل ما يحدث .. أنا لا أمثّل الرغبة الأمريكية ..

وأدرك عمر أنه يقصده بكلامه ، فرد عليه :

- في القاعدة التي أنت فيها ، توجد خطيبتي ..فتاة بريئة .. وأنت وهي والجندي الأمريكي وعنصر مليشيا بدر ،موجودون في مكان واحد ..فأي هؤلاء أقرب إليك ؟

قال الضابط : العراقية السجينة طبعا .. أقرب إليّ من ناحية الإحساس ..

قال عمر وقد خالجه التوتر وسرى في عروقه تيار حاد :

- لا يهمني إحساسك..عمليا أنت مع السجان الذي هو ضد السجينة..لا تهمني مصلحتك ولا مصلحة نظامك الذي يستحل كل شيء من أجل ذلك .. أنت أطعت نظامك هربا من غضبه والموت في أقبية سجونه ..وبعدها أذعنت للأمريكيين خوفا من الموت برصاصهم .. لكنك بذلك اخترت الجهة التي ستقتلك..
- أنا لم أفعل ..
- أنت اخترت الحليف وكان ذلك ضمنيا اختيارا للعدو .. لقد اخترت العدو الذي يقتلك..
- ولماذا يقتلني ..؟

- لأنه يستمد الشرعية من مقاتلتك له ..فهو يقتلك لكي لا تقتله ..
- أنا لا أقتله ..
- هل تريد إقناعنا أنك هنا لقطف الزهور أو للتسوق والسياحة ..أنت في ثكنة يا سيد ولست في فندق تمارس من خلال العيش فيه تسجيل ملاحظات عن الحرب أو جمع معلومات أو التقاط صور .. أنت جندي في ثكنة ..تخضع للأوامر وتنفّذ المطلوب ..
- لكن هذه الثكنة ليست تابعة لنظامي ..
- تلك هي المصيبة، ونظامك مجرّد فريق كرة قدم، تنازل عنك لفريق آخر بمقابل ، وهذا الفريق الآخر هو الذي تلعب الآن لصالحه وتدافع عن ألوان علمه .. أنت عربي مسلم تلعب في الفريق الأمريكي ضد فريق العراق العربي المسلم.. هل وصلتك الصورة أيها الضابط ..؟أم أنّ تحويلات الدولار ومطامع الترقية قد أعمت عينيك عن هذه الحقيقة طوال السنوات التي قضيتها هنا ؟

قال الضابط الكبير:

- الأمر يتعلق بلعبة السياسة لا بلعبة كرة القدم والفرق بينهما..

وقاطعه عبد الله اليمني وهو يقول:

- لا فرق بينهما ..هذه لعبة وتلك لعبة .. والكثير من الفرق الرياضية تشكّلت على خلفية أطروحات سياسية ، فنادى إيه سي ميلان مثلا كان فى بداياته عام ١٨٩٨ نادي العمال الشيوعيين في ميلانو، ولكن لاحقاً ظهرت مجموعة بورجوازية داخل النادي انفصلت عام ١٩١٠ لتطلق ناديا جديدا باسم إنترناسونالي أو ما يعرف اختصارا بـ (الأنتر ميلان) وهو أول نادٍ عالمي استند إلى النزعة المادية ليستعين بلاعبين أجانب للعب كمحترفين في صفوفه ...إنه الصراع بين الرأسمالية والشيوعية..

وخلال المائة عام الماضية كان ديربي ميلان هو الديربي الأقوى في العالم وكان التنافس بين الجماهير يصل لأعلى المستويات خصوصاً أثناء اللقاءات الأوروبية بين قطبى ميلان، ولكن هذا الشيء لم يمنع النادِيين من اللعب في ملعب واحد باسمين مختلفين (سان سيرو عندما يلعب

الميلان فيه ... وجوسيبه مياتزا عندما يلعب الأنتر)، هذا الوضع موجود أيضا فى مدينة لندن بين نادى تشيلسى (الفريق المفضل لأثرياء لندن) ونادي أرسنال الذي أسسه العمـــــال الأنجليـــــز عـــــام ١٨٨٦م.

والحرب الضروس بين ريال مدريد وبرشلونة تعود لفترة الحـرب الأهليـة الأسـبانية بـين القـوميين الملكـيين والجمهوريين، فكان فريق (مدريد) الذي أنعم عليه الملك الأسباني بلقب (ريال) هو فريق الملكية وأحد رموزها في مواجهة الجمهوريين االشيوعيين فى كتالونيا وطموحهم للاستقلال ، فكان برشلونة هو أيقونة التحرر الكتالوني ، مثله مثل نظيره أتليتكو بلباو في إقليم الباسك المُطالب بالاستقلال..هل تعرف كل هذا أيها الضابط؟

وهزّ الضابط رأسه بالنفي..فقال عبد الله :

- أنت إذن لا تفهم شيئا مما يحدث حولك ..لا في لعبة الكرة ولا في لعبة السياسة..لذلك رقوك..لأنك تطيع وتتورط دون أن تفهم..لا تفهم ..لا تفهم.. وأكبر دليل على ذلك أنك ارتضيت لنفسك أن تكون كبش فداء ..لكل شخص من اسمه نصيب

أيها السيد فداء..

وتدخّل بدر ليقول لأصحابه ، ساخرا من منطقٍ يصارع نفسه ويصرع صاحبه :

- أنتم تبحثون عن الزهر في الصخر..تريدون منه عدالة أو منطقا؟هو لا يملك ذلك..ألم تقرأوا المثل الذي يقول أن السياسي شخص فقد ضميره منذ عشرين سنة؟! أمثال هذا يفقد ضميره بعد عام واحد من وظيفته..لذلك فهو يعيش بقية عمره بمنطق الوحش الذي يدعي حيازة شرعية الفتك ببقية المخلوقات.. أنتم تحاولون أن تقصّوا على أصلع قِصة يقف منها شعر رأسه..لن يقف شعر الأصلع ، ليس لأن القصة ليست مذهلة..بل لأنه لا شعر في رأسه.. وهذا لا ضمير في داخله.

وانتهى الحوار .. وكان لا بد للسؤال الشائك والجواب المتردد أن يصلا إلى نتيجة في الأخير ..

برزخ

كان عمر قد أخذ من ضابط المخابرات بعد ذلك ما أراد ..وقد رسم للقاعدة العسكرية في خياله خريطة مفصّلة .. ورغم أنه لم يكن من السهل الحصول على طريقة للوصول إلى سراديب تلك القاعدة لإنقاذ ليلى ، إلا أنّ ذلك كان هو الواقع الذي لا يمكن الوصول إلى ليلى خارجه ..

كان عمر يفكّر في ليلى ..لكنّه كان يعلم أنّ عملية إنقاذها تعني إنقاذ غيرها من السجينات .. وكان أمام معضلة أخرى .. فأين ستذهب كل تلك النسوة إن نجحت العملية فعلا وخرجن من سراديب المأساة المزدوجة التي يفتل حبلَها خيطان مُبرمان ،أحدهما المحتل الغربي ، والآخر غادر حاقد يقتل العراق وهو يدعي أنه ابنه ..تماما كما فعل نيرون بروما وهو لا يفرّق بين الحب والجنون ، كما لا يفرّق هؤلاء بين الحب والخيانة.

في غرفتهم ،بنافذتها التي تشبه وجه القرصان بعينه المفقوءة المختفية وراء جلدة سوداء ، كان الخمسة الذين أحدهم الدكتور

عمر ، يتجاذبون أطراف الحديث في جو من الجدية ، لم يتُح لبدر فرصة إطلاق مزحة أو نكتة مما تمتلئ به جعبته ويفيض طبعه ..

كان لا بد من الغوص في تفاصيل ما يجب، فقد اقترب موعد العملية مع اقتراب عيد الفطر ، وقد تسرّبت أنباء عن عزم النظام إعدام مائتي امرأة سجينة..وقد كانت حصة سجن الموصل من ذلك ثلاثين امرأة ، إحداهنّ ليلى..

ولم تكن جريمة الفتاة الموصلية سوى أنّها أرسلت إلى عمر رسالة جوال عبر شركة آسياسيل، وكان في الرسالة : " أخاف أن أُفجَع في الأسماء بين عثمان وعمر، ففي العراق تدفع الأسماء أثمانها ... أخاف من اسمك وعلى اسمك.. وعليّ وعليك من اسمك...".

كانت تلك الكلمات كافية لأن تقول وأن تعني الكثير..وكان حبل المشنقة أقلّ عقوبة ممكنة على تلك الكلمات في ظل القانون الجديد في بلد حمورابي..

كانت عقارب ساعة الجدار تتحرك في قلب عمر فتخدش الميناء وتكسر زجاج صبره مع دقات الثواني.. ولم يكن نهر الزمن الهادر ليتوقف لامرئ لا يتقن السباحة ، أو لمضطرب يحاول إقناع الساعة

بالصمت للحظات يلتقط فيها أنفاسه، وقد داهمه الوقت..

في تلك الساعة كانت السيدة جمانة على سطح منزلها، تتحدث إلى الموصل في قسنطينة، وتُطيّر ألف سلام وأمنية ، رغم أنّ الطيور تخونها في الليل الأجنحة، إذ يعوزها النظر .. لكنّ قلب الأم يطير أكثر في الليل حين تسكن المدن عن الحركة، وتهتز في الجوانح البراكين .. ومدّت يدها بمنديلها تمسح دمعة أحست بها قد بردت في هبوب نسمة..وللدمع البارد على الخدود ما للساخن في المآقي .. فالدمع دمع..

في الموصل كانت سلاف شقيقة ليلى تذوب رحمة وشفقة مع دمعتين تحدرتا من عيني والدتها التي استسلمت لقدرتها في تلك الساعة مثل عصفورة في ضغطة الفخ الذي لا يرحم..

انتشر جنود المارينز بقيادة الضابط عمر في بيت عائلة ليلى وحوله .. كانت أمّ ليلى بين جنديين يدفعانها إلى الخارج بشدة، وقد انتعلت فردة واحدة من الحذاء، بينما فقدت الأخرى وهي بين جنود يدفعها هذا ويستقبلها ذاك ليدفعها ..

ساد الوجوم وجوه أبنائها وعقدت المصيبة ألسنتهم، بينما أسند زوجها جبهته بقبضته في غيض يمزّقه مثل خنجر معقوف، ومرارةٍ

تجتث فؤاده مثلما تفعل قبضة قوية بنبتة متجذرة ، فتخرِج الجذور بما تشبث بها من التراب والدم واللحم والعروق..

لم يتطلب الأمر أكثر من ساعة لينفتح باب الزنزانة التي تقبع داخلها ليلى ولتُدفع إلى الداخل امرأة لم تكن إلا أمها .. وغابت كل منهما في حضن الأخرى، بينما حرّكت الشهقات المجروحة قلوب النسوة الأخريات، ليتحوّل المكان إلى معصرة للقلوب، يتقاطر منها حزن قاتم لم يكن معه في تلك المضغ النابضة نقطة بياض واحدة..وهل يُعصَر غير الحزن من قلب حزين؟!

برزخ

لم يبق عن صلاة العشاء سوى ساعة..وتحت مراقبة أبراج الحراسة والدوريات المنتشرة هنا وهناك تحرّكت أرجل قليلة لبعض كبار السنّ في ذلك الوقت من الليل نحو المسجد.. كان وقْع الأقدام الذي ينضم إليه أحيانا وقع عصا، يشرخ صمت الليل ..وتمضي عيون الحراس لتوصل هذا إلى باب المسجد قبل أن يستعيد اهتمامها شبح آخر يخرج من ظلام زاوية أخرى، فتترك الأول وترجع إليه تراقبه وترافقه إلى مقصده حذِرة مترقبة، لا تعطيه براءة ذمة إلا وهو يدخل المسجد..

وكانت الساحة التي تستقبل أبواب الجامع مضاءة ، أما ما خلف المسجد فلا غير حنادس حالكة يُضيع فيها المرء يدَه إذا أخرجها من جيبه..

كانت الخطة أن يتحرك الشباب الخمسة ، عمر ومن معه، متفرقِين، تفصل بين كل اثنين منهما دقائق، وكانت وجهتهم المسجد، وقد حدّب بعضهم ظهره وجر رجليه في تهالك، ليُظهر من خلال ذلك

تقدّم سنه ..

كان في موضأ المسجد نافذة تطل على الفضاء الخلفي حيث الظلام ، ملعب صغير للكرة، وبقايا أبنية مؤسسة قديمة أغلقت أبوابها .. ومن خلال النافذة غاب الخمسة في الظلام تباعا ..

كانت القاعدة العسكرية التي تضم السجن ، على بعد كيلومتر واحد، وكان نباح الكلاب الذي يتعالى يكشف هؤلاء، ومزّق رداء السكون صوت عال يشوبه الخوف:

- من هناك؟

وحبست المجموعة أنفاسها ، وقد أدركت من خلال المصباح الكبير الذي أطلق لسانه المضيء مثل كلب حراسة يتشمم المكان ، أن هناك حارسا ليليا في تلك المؤسسة القديمة ..وقد يكون مسلّحا..

كان لا بد من حذر أكثر..ولم يكن من السهل قطع تلك المسافة زحفا على البطن دون أن يبدو من معالم الأرض ولا مما فوقها من الحجارة والأسلاك وغيرها شيء..

أخيرا بدت القاعدة ببعض نوافذها المضاءة، وبالأضواء المسلطة حولها ما يكشف كل ما ومن يدخل إليها، وما ومن

يخرج منها ..

وفي واد تنبت حوله بعض شجيرات السدرة الشائكة، اتخذ الشبان لهم مخبأ.. وشق سيف الفجر الأشهبُ ظلام الليل ، فتنفّس الفجاج حول الموصل وزحف بياض مغبّش من فوق خطوط الآفاق المنكسرة على رؤوس التلال والجبال والمساكن ، يغزو اللوحة البديعة .. التي لم يكن يظهر فيها خمسة من المقاتلين الذين يضمون رشاشاتهم و ركبهم إلى صدورهم ..وينتظرون..

برزخ

دبّت الحركة في القاعدة، وانبعثت فيها الحياة بعد الموت، وتحركت أقدام الجنود في الساحة أو في الأروقة، بينما كانت النساء السجينات قد جلسن بعد صلاة الفجر يذكرن الله تعالى ويستقبلن ضوء يوم جديد من خلال كوة صغيرة هي الوحيدة التي تربطهم بعالم الحرية..

كان الضابط عمر في تلك اللحظة يدخل المطبخ الكبير الذي تفور قدوره وأجهزته ويتحرك فيه عشرة من الجنود الطباخين الذين كانوا منهمكين في إعداد الفطور...

مرت لحظات.. وتحرك بعض جنود الخدمة بتلك الأواني العملاقة نحو غرف الضباط ومراقد الجنود وزنزانات السجينات، يوزعون عليهم الحليب والقهوة والشاي والخبز، بكميات ونوعيات تقتضيها الفروق بين الضابط والجندي، والسجّان والسجين..

كانت تلك الوجبة ضرورية قبل وقفة الصباح في الساحة

الواسعة، حيث يجتمع جميع المجندين لرفع العلم وتوزيع المهام..

كان الجنديان اللذان يجلسان الآن في المطعم لتناول الفطور المكوّن من الكعك المُسخّن والمربيات والجبن والحليب قد أنهيا رحلتهما الصباحية في الرواق الطويل الذي تطل عليه زنزانات السجينات، حيث وزعوا عليهن بعض الحليب مع قطع من الخبز اليابس..

ولم يكن عمر من الذين يدخلون المطبخ الكبير إلا لماما، لكنه الآن يجب أن يفعل ذلك ..ربما ليتعوّد الطباخون على رؤيته هناك ..وكان يختفي في ثنايا بدلته العسكرية الأنيقة شخص يخفي قي ثنايا سره شيئا..

كان النهار طويلا ..والترقّب يطيل الزمن ويحرق الأعصاب ويربط عقارب الساعات إلى مينائها ..مثل قوارب يخاف عليها أصحابها من العاصفة ..

وظهر الليل متلفعا بالسواد يعتلي ظهر جمله قادما يبسط ظله المظلم على المدينة والقاعدة وقلوب نسوة الزنازين المعجونة بالمرارة والانهيار.

كان لا بد لشيء ما أن يحدث بين غروب شمس ذلك اليوم وشروق شمس اليوم الذي يليه..شيء ما ، ينهي اللعبة برمتها ..يموت فيه أحياء أو يحيا فيه أموات.. تتحرر فيه معاصم مقيّدة ، أو تُقيّد معاصم حرة..

كان الضابط عمر خائفا مضطربا يبدو ذلك في حركته وفي تشوش ذهنه ..لكنه كان يحس براحة غامرة تضعه بين كفيها مثل طائر صغير نجا من العاصفة ، فينبعث في جسده الدفء ويتدفق في أوصاله الهدوء..

ساعة الصفر تقترب ، وقلوب الخمسة الجاثمين في الوادي المتمدد مثل ثعبان قريبا من القاعدة تكاد نبضاتها تخترق الصدر لتخرج منه..وللقلب في صدر صاحبه أحوال ، فهو لا يكاد يطاوعه أو يوافقه ، فإذا خاف المرء من العواطف خالفه قلبه ليرتمي في أولى عيون ترميه بسهامه ..وإذا ما تطلّب الموقف حبس الأنفاس والحركات في لحظة ترقب أو خوف ، خالف القلب صاحبه فازدادت قوة نبضاته ..

كانت السيدة جمانة على سطح منزلها في ليلة أخرى من ليالي يرفرف فيها قلب الأم ، ثم يعود ليحطّ على غصن من ضلوع

الصدر، وقد اختلطت في عينيه الدروب واستحالت الاتجاهات مؤامرة لا توصل إلى شيء..

كانت ليلى تتأمّل وجه أمّها ، وقد امتدت إليه فرشاة الأيام فلوّنت فيه تغضّنات للعمر وقسمات للحزن .. لكنها كانت رغم كل ذلك تراه جميلا متناسقا يشفّ عن قلب كبير ونفس مطمئنة مصابرة..

كانت الزنازين خريطة واضحة لتضاريس كثيرة.. وحول هذه الكتل التي قست عليها الأيام وتمزقت أشرعتها في أزمنة العواصف، يلتقي الفُرْس بالروم، وتتوحد الوليمة والضحية ، عبر أناس يدّعون أنهم عراقيون .. وأنهم جاؤوا بالاحتلال ليتحرروا وباعوا وطنهم ليستقل ..كانوا ظلالا وعبيدا لشركاء متشاكسين من فرس وروم يديرونهم حول هذا السرداب القاتم للشرف العربي المتكوّم على أرض الزنازين..

لقد عبثت الغربان بأعشاش النسور، ولم يعد المثل الكردي القديم يعرف ما الذي يجب أن يقوله.. أيقول ويل للغربان إذا عبثت بأعشاش النسور..أم ويل للنسور إذا عبثت بأعشاشها الغربان.

برزخ

كانت روائح الطعام وحرارة المكان قد اندفعت في وجه الضابط عمر وهو يدفع باب المطبخ ويدخل..موسيقى الروك الطاغية تحرّك أجساد جنود الطبخ والخدمة هناك ، ومن بين بخار القدور كان يمكن للضابط عمر أن يشتمّ رائحة دخان لفافات المخدرات التي كان اثنان من الجنود يستمتعان بنشوة امتصاصها ..

كان بحاجة إلى فرصة سانحة ليفعل شيئا .. وكان أمامه من الوقت ما يكفيه وزيادة ..لذلك بدا مطمئنا ، وقد انقشعت عنه سحابات الاضطراب بعد أن قر قراره وقطع سُرّة التردد بسكين

الحسم..

حين أنهى الخمسة المختبئون في رحم الوادي صلاة المغرب والعشاء جمع تقديم، كان الضابط عمر قد أنهى هو أيضا مهمته وخرج من المطبخ ، ليبدأ جنود الخدمة حينذاك توزيع وجبة العشاء على الغرف والمطعم والزنازين..

وبين كل جنديين اضطرب الإناء الكبير بما فيه...

كانت أمّ ليلى قد نثرت الخبر بين السجينات فانفتحت شهيتهن للحياة وللأكل، ولئن كانت هذه هي المرة الأولى التي تنفتح فيها شهيتهن للأكل، فإنّ ذلك الأكل محرّم عليهنّ.. فهل كنّ في إضراب..؟

غادر جنود الخدمة جناح السجن، وقام حارس الباب من جهته الخارجية فأغلقه ..كان بابا حديديا ضخما ..وكان حارسه أيضا جنديا ضخما يلبس قميصا يكشف عاتقيه بما عليهما من الوشم.. وعلى طاولة قريبة منه رشاشه ودفتر كبير وهاتف، وأغراض أخرى صغيرة اجتمعت لتؤثّث فوضى ذلك المكان..

أنهت النساء صلاتهنّ.. وتهامسن في ترقّب قاتل ينتظرن إلى أين ستسير الأمور بهنّ.. ولأن من لم تكن منهن محكومة بالإعدام

فهي محكومة بالموت على أية حال، فإنّ أيّ نافذة تُفتح لهن إلى النجاة ستكون أفضل من الموت مهما كانت..حتى لو كانت تحمل الموت في ثناياها، فأن يموت الإنسان وفي قلبه نبضة أمل أو ذرة سعادة ،أفضل من أن يموت ملفوفا في اليأس ومقرفصا في نفق لا نهاية له..

في الزنازين التي تضم أكثر من خمسمائة امرأة ،لم تمتد يد نحو الأواني المقرفة التي لا تصلح حتى لأكل الحيوانات.. بينما استمتع الضباط والجنود في المطعم والغرف بتلك الوجبة التي لم يكن من نصيب السجينات منها إلى شربة الفطر التي تضاف في أواني التوزيع على كمية من الماء تفسد طعمها..

ولم يكن اعتقال أمّ ليلى إلا في إطار خطة بين الضابط عمر وابن عمه ومن معه من جماعته، وكانت الخطة تقتضي أن يتم اعتقال أمّ ليلى لتقوم بترتيب الجزء المتعلّق بالسجينات اللائي أطلعتهنّ أم ليلى على تفاصيل الخطة التي تبدأ بامتناعهن عن تناول طعام العشاء المسمّم ، ثم ربطهنّ بالضابط عمر الذي سيقوم بإخراجهنّ من القاعدة ..ولم تكن السجينات لتشق في الضابط عمر لولا تزكية أم ليلى..

كانت كمية السمّ كافية للقضاء على الضباط والجنود الذين تناولوها في الطعام في لحظات..والذين لم يتناولوا الطعام حينذاك وهم بعدد أصابع اليدين، كانت الخطة تقضي بالقضاء عليهم من طرف الضابط عمر وابن عمه وجماعته الذين يَفتح لهم الباب لدخول القاعدة..

وبينما كان عمر يأخذ المفاتيح من الجندي الملقى على الأرض..كانت النساء تتدافعن أمام أبواب الزنزانات في انتظار أن يُفتح الباب ويطل منه المخلّص الذي لن يكون غير ضابط أمريكي من أصول عربية إسلامية..هو عمر..

ولم يطل الانتظار..وقد انضم ثلاثة من الخمسة إلى الضابط عمر لتنظيم خروج النساء ..بينما كان الجزء الآخر من الخطة أن تحدث عملية كبيرة في الجانب الآخر من المدينة تصرف الأنظار عن منطقة القاعدة، وتثير فوضى في الشوارع تجعل منظر مئات النساء الهاربات من السجن وهن يعبرنها ،أمرا عاديا في مثل تلك الظروف التي تموج فيها المدينة..

كان الدكتور ومعه عبد الله اليمني قد أصيبا ،وبدات إصابة عمر أشد وأخطر ..كانا ينزفان .. وكانت ليلى قد علمت من

أمها بأمر عمر ووجوده في مدينتها ..لذلك كانت تلح بالسؤال على الضابط عمر عن مكان خطيبها الذي أثبت أصالة معدنه وقوة حبه لها..

كان الضابط عمر الذي اصطحب معه بدر الخليجي وبعض النسوة منهن ليلى وأمّها، يعرف تقريبا أين سيجد عمر وصاحبه.. وكان الأمر كما خمّن..

كانا في إحدى الغرف ينزفان بشدة .. بينما تنبعث من جوف عمر أنّات متقطّعة..

كان المكان شبيها بغرفة تعرّضت أعداد الذباب الهائلة فيها إلى مبيد قويّ..فقد تناثرت الجثث في كل مكان مزرقّة الوجوه ..

وابتسم عمر وقد أدرك حين رأى ليلى أنّ العملية نجحت ..ثم غاب عن الوعي..

برزخ

كان الضابط عمر يدرك أنه من السهل أن يكتشف المحققون ضلوعه في هذه العملية، ذلك لأنه سيكون الغائب الوحيد الذي نجا من الموت.. لذلك أراد صبّ الماء في اتجاهات تخلط على المحققين أوراقهم..فعمد إلى تحميل عشرين جثة في شاحنة لدفنها في مكان بعيد وإخفاء أي أثر لها في أماكن متفرقة وليس في مكان واحد، وحتى إذا تم العثور بعد ذلك على جثة أو جثتين فإن ذلك لا يعني العثور على جميع الجثث.. كما لا يعني أنّ الجثث المتبقية موجودة في مكان واحد.. وهو ما يدفع التهمة عن عمر حتى لو تم العثور على جثث العشرين في أماكن متفرقة، دون أن تكون جثته بينهم، إذ سيكون الغالب على الظن أن جثته موجودة في مكان ..ثم أنّ عشرين جنديا مفقودا

سيعني لغزا كبيرا يقطع الخيوط باتجاه الحقيقة ..فالضابط عمر لن يكون وحده المفقود، فهناك غيره عشرون ..

لم يكن من الممكن أن ينتبه الاحتلال أو أجهزة النظام إلى ما حدث..وكان أمام السجينات ومنفذي العملية متسع من الوقت حتى الصباح ،يكفي للذوبان في العراق الواسع ، بل وتجاوز حدوده..

وحين انفلق الفجر مثلما تنفلق حبة لوز عن نبتة غضة طرية بهية الخضرة ..كانت وسائل الإعلام تتناقل خبر العملية اللغز، بينما المشاهدون يبدون تذمرهم من رئيس الوزراء العراقي وهو يتحدّث عن مندسين من بقايا حزب البعث قاموا بتسميم الجنود الضحايا..

برزخ

في غرفة آمنة لا يمكن للشبهات أن تحوم حولها ، كانت أمّ ليلى تضع كمّادات مبللة بالماء على جبين عمر .. بينما كانت ليلى تتأمّل وجهه البريء المصفرّ والدوائر الزرقاء المحيطة بعينيه ، وهي تشهق شهقات عميقة حارة ، تسيل معها دموعها ويتمزّق قلبها ..

أما الضابط عمر فكان على كرسي مقابل للسرير يسند رأسه إلى الجدار خلفه ويغمض عينيه في لحظات تأمّل ..

وضْع عمر حرج .. والإسعافات الأولية التي قُدّمت له قد لا تكون كافية ..وكانت الدكتورة ليلى بما أخذته من عموميات الطب تحاول إنقاذ هذا الفارس الذي يشبه المستحيل في كثير من تفاصيله..

كان رجلا استثنائيا ..

وقال الضابط عمر الذي استعاد رعشة الإحساس الجميل الغامر وهو يفتح أبواب الزنزانات ويحرر أخواته العربيات المسلمات المظلومات.. :

لقد قال لي قبل العملية أنّ كتف الرّجُل لم تُخلق إلا لتعلّق عليها البندقية.. وأكّد لي أنه جاء لتحرير ليلى، لكنّه دخل من ذلك الباب إلى قناعة أوسع وهي تحرير العراق ..وكان يقول لي: ما الفرق بين ليلى وغيرها من النساء السجينات ظلما ..وما الفرق بين تلك السجينات والعراق المقيّد المحتلّ..؟

قالت ليلى :

- كيف عرفتَه؟

فأجابها الضابط:

- إنه ابن عمّي..جدنا واحد .. وأبوه عمّي صالح هو الشقيق الأكبر لوالدي..

ذهلت ليلى للمفاجأة.. وتمتمت :

- لم تعد الجنسية تهمّ..فأن يأتي شاب من بلد بعيد لينقذني، بينما يعتقلني شاب من بني وطني ، فذلك يعني أنّ هناك

شيئا أكبر من الجنسية القُطرية .. لذلك سأهب عمري له وأجعل حياتي كلها لأجله .. وانفجرت بالبكاء ..

قالت أمها :

- إن شاء الله يا بنيتي ..إن شاء الله ..

وكانت تعني : إن هو تجاوز هذا الخطر وعاش..

اقتربت الفتاة من السرير ..كانت تريد أن تتأمّل وجهه أكثر .. غمرته من عينيها الدافئتين بنظرات ود صافية كشلال.. وأرسلت منهما خيوطا من الحب تغسل عن وجهه آثار الضعف فيه، كما تغسل الشمس الأرض بمغازل نورها ..

قالت في نفسها : خيّب ظني كثيرا ، فقد كان أكبر مما أمّلته وحلمت به ..بطلي هذا المدلل القادم من حياة الحرير إلى عالم الحرب..

مَنْ مِن الفتيات كان لها مثل ما لي من مهر ؟!..لقد قدّم دمه لينقذني .. وهو ليس من أولئك المتهورين الذين قد يقدّمون دماءهم على كل نصب ومذبح .. إنه يحب الحياة ..لكنّه رغم ذلك ضحى بحياته من أجلي..

كانت عيونها تسبح في بركة وجهه مثل بطتين مائيتين يهتز

ريشهما في رعشات فتنهمر من رموشها هي حبات دمع ..وتسللت إلى شفاهها ابتسامة شفافة رقيقة حين تذكرته في الجامعة .. إنها تسترجع صورته مرتبكا متعثّر الخطى وهو يحاول مصارحتها..تتذكره حين تلتفت فجأة في مدرج الجامعة فتهرب عيناه من عينيها مثل حمامتين مفزوعتين أمام طلقتي بارود ..وكان في عينيها بالنسبة له شيء من معنى الرصاص حاد قاطع ومدمٍ..

كان أخوف ما يخيفها فيه آنذاك هو أن يكون ضعيف شخصية ..لكنها كانت تراهن على ما في عروقه لا ما في أغصانه..على جوهره لا مظهره .. وقد أثبتت لها الأيام الآن أنّ ذلك الشاب الثري الذي تفوح ثيابه بعطر المانوليا وتتلألأ قُصة شعره مثل المرآة ، لا يحمل في سَمْته الهادئ غير بطل أسطوري لا يُهزم ، وأسد مِقدام لا ينام على ضيم..

كانت حزينة عليه وسعيدة منه ..

وصدرت عنه أنّة متهالكة ضعيفة، فنبت في قلبها حقل من الجراح النابضة، وودّت لو أنها تستطيع أن تضمه إليها وتهبه عمرها .. وارتفع الأذان الرائع :

الله أكبر، الله أكبر..

وتحركت شفاهها :

- الله أكبر..

برزخ

بدت قسنطينة كما لم تكن يوما .. فيها شيء جديد طارئ لا يمكن تفسيره ..كانت العيون تسبح فوقها مثل طيور ليلية تصُفّ أجنحتها وتقبضها في أمواج الظلمة المشوبة بنهايات هالة الضوء، حيث يذوب الضدان في بعضهما ..

على سطح المنزل كانت ظلال عدة تمتص من الصمت فرحها ..السيد صالح، ابنته رقية، السيدة جمانة ، الضابط عمر الذي لم يعد في السجلات الأمريكية سوى جندي مجهول لقي حتفه

دفاعا عن الوطن في غير الوطن، بينما كان في تلك الساعة يتحدث إلى والدته في الوطن الذي عاد إليه جثمانه الوهمي ، الدكتور عمر الذي ارتسم على جسده وسام على شكل عاهة ، حيث اخترقت فخذه ثلاث رصاصات، لم تخرج بعد ذلك إلا وهي تخلّف في مشيته عرجا خفيفا..

قال الضابط عمر: هل يختلف الناس في الأرض لأنهم يختلفون حول السماء..؟

وأجابه عمه :

- يختلف الناس في الأرض لأن الأرض تختلف فيهم، فمنهم من يراها مسجدا ومنهم من يراها بئر نفط ، ومنهم من يراها سوقا، ومنهم من يراها سجنا، ومنهم من يراها كرسيا ..لا دخل للميم في أبناء الراء..

السماء ميم..والنجوم ميم..والقمر ميم..والغيوم ميم ..والملائكة ميم.. بينما التراب راء، والشجر راء ، والبحر راء ، والرمل راء ، والحجر راء، والبشر راء ، والأرض راء والبحر راء، والقبر راء، والحفر راء..

إنها ثنائية ميم ملائكة السماء ، وراء بشر الأرض..

ليلى ..كانت أيضا هناك .. أصبحت زوجة عمر .. وقد أشرق وجهها في خمارها الأبيض في تلك الساعة ، وهي تهمس لأمها تحت ضوء قمر تلك الليلة الصافية من آخر ليالي الصيف :

- انظري إلى قسنطينة كم هي جميلة يا أمي ..

فتجيبها أمها :

- يزداد جمال المدن حين تتداخل بوجه الحبيب.. وتبلغ قمة الجمال حين يكون وجه الحبيب وجهَ فارس شهم..

ابتسمتا ..

وكان البدر حينذاك يعبر في عباءة مطرّزة بالضوء .. مبتسما.. هادئا.. حرا..بينما جورية حمراء تمتص من البدر مغازل النور ، وتتنفس في الأرجاء لتعطّر المكان ..وليجيء صوت عمر هادئا وبألف معنى :

- ليلى ، هل سقيتِ الجورية؟

وابتسمت وهي تقول له بعينيها :

- لقد سقيتها بدمك يا عمر..ولن تكون بعد اليوم بحاجة إلى شيء..

كان يقصد الجورية التي على السطح ، وكانت هي تقصد نفسها ..والجورية التي في قلبها ..والتي في قلبه ..وكانا معا يقصدان

الجورية اليابسة في طيات الكتاب، والتي لم تكن سوى قطرة الحبر الحمراء الأولى التي ابتدأ منها سطر ملحمتها ..ملحمة جلجامش الجديدة التي سرى خبرها في الموصل ثم في العراق كله..

وقامت ليلى لتسقي جورية على السطح، كانت في تلك اللحظة تمتص مغازل النور ..بينما البدر يعبر في عباءته المطرزة بالضوء وأريج الجوري.. مبتسما.. هادئا.. حرا..لا يستوقفه حرس الحدود، ولا يقدر على اعتقاله جنود البنتاغون وأعوانهم في أيّ مكان.

كان الانتهاء منها بتوفيق الله فى دمشق الفيحاء

صفر ١٤٣١ هـ

يناير – كانون الثانى

شتاء ٢٠١٠ مسيحى

بعد ثلاث سنوات من بدئها